# مجلة الصحافة

العدد (39) | السنة التاسعة | خريف 2025

## الجزيرة..
## سيرة الميدان

معهد
الجزيرة للإعلام

# محتويات العدد


عاصف حميدي: لا نخفي الحقيقة تحت شعار التوازن
حاوره / محمد أحداد
06

ماذا يعني أن تكون صحفيا استقصائيا اليوم؟
إدوي بلينيل
10

من الخبر إلى التوثيق.. دروس عملية من تغطية الحرب على غزة
هشام زقوت
16

الفيلم الوثائقي القصير.. الذاكرة المضادة للإبادة
بشار حمدان
20

من الحارات إلى «القارات».. كيف أصبحت صحفيا في الجزيرة؟
عمر الحاج
26

كيف يحمينا الشك من التضليل؟
إسلام رشاد
32

الصحة شأن سياسي وعلى الصحافة أن تكون كذلك
أنيس الجرماني
38

كيف تجعل الصحافة أزمة المناخ قضية الناس؟
بنا سلامة
44

يوميات صحفي في دمشق يوم التحرير
محمد ديب
50

كيف ننقذ قصص الهجرة من الغرق؟
كارلوس زوروتوزا
54

صحفي أم محلل؟
همام كدر
58

كيف ولدت حركة الصحافة السرديّة في الصحافة الأمريكية المطبوعة؟
محمد زيدان
64

الصحافة في غزّة.. سباق ضدّ قطار الإبادة
أميرة نصار
72

الصحافة في موريتانيا.. ما خلف مؤشرات حرية التعبير!
أحمد محمد المصطفى
80

أي صورة ستبقى في الذاكرة العالمية عن غزة؟
حسن عبيد
86

# الصحافة وروح الميدان

منذ اللحظة الأولى لتأسيسها، كان الهاجس الأساسي لمجلة الصحافة هو الاحتفاء بتجارب الصحفيين في الميدان والإضاءة على اجتهادات غرف الأخبار، وأن تصبح مختبرا للتفكير في مستقبل المهنة.

هذا الوعي بأهمية الخبرة الصحفية الموازية للتكوين الأكاديمي، رافق مسيرة المجلة طيلة عشر سنوات تقريبا، لكن الاستنتاج الذي تولّد لدينا مؤخرا هو أنّ ثمّة اتجاها عالميا نحو الإفراط في التنظير نتج عنه تضخم في الأدبيات، ونحت مصطلحات غريبة، والإغراق في التجريد؛ للإيحاء بأن الصحافة مهنة معقدة وعصيّة على الجمهور. إننا لا نتحدث هنا عن التكوين العلمي الرصين في كليات ومعاهد الصحافة، بل عن موجة عالمية متنامية خارج الجامعات تنظر إلى الصحافة برؤية نخبوية منفصلة عن تحدياتها الحقيقية: زحف السلطة على ما تبقى من مساحات حرية التعبير وسيطرة المال على المهنة وضغوطات منصات التواصل الاجتماعي وكفاءة الصحفيين...

هكذا، يحاول ملف العدد استعادة روح الصحافة من الميدان، من تجارب الصحفيين، ومن هواجسهم الحقيقية، وكيف تعاملوا مع لحظات مهنية صعبة خاصة في البيئة العربية التي تواجه الحروب وتداعيات التغيّرات المناخية المتطرفة والاستقطابات السياسية والطائفية الحادّة.

نستعيد في هذا السياق حربَ الإبادة الجماعية على غزة مع عاصف حميدي مدير قناة الجزيرة الإخبارية، وكواليسَ ومعايير صياغة القرارات التحريرية، والسلامةَ المهنية للمراسلين. ونتساءل مع إدوي بيلينيل مؤسس موقع ميديات بارت عن معنى أن تكون صحفيا استقصائيا اليوم.

كما نمنح الصوت الكامل لخبرات صحفيّين نجوا من الحروب ومن السجون ورافقوا المهاجرين في «مراكب الموت»، ونضيء على الرؤى التحريرية المبدعة في التعامل مع قضايا مثل المناخ والصحة والرياضة والتحقّق من الأخبار..

باختصار، كان تعاقدنا مع الكتّاب واضحا وموجزا: نريدك أن تحكي قصتك الشخصية، أن تسأل: «كيف غطيت...؟» لتكون مرجعا للصحفيين وطلبة الصحافة في زمن طغت فيه الأدبيات على الممارسة الحقيقية.

هيئة التحرير

# كتاب المجلة

**عاصف حميدي**

مدير قناة الجزيرة الإخبارية.

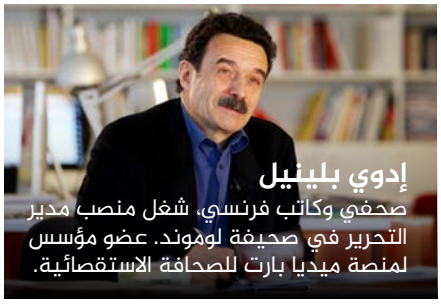

**إدوي بلينيل**

صحفي وكاتب فرنسي، شغل منصب مدير التحرير في صحيفة لوموند. عضو مؤسس لمنصة ميديا بارت للصحافة الاستقصائية.

**هشام زقوت**

مراسل قناة الجزيرة في غزة، غطى حرب الإبادة الجماعية.

**بشار حمدان**

منتج استقصائي ومخرج أفلام وثائقية في شبكة الجزيرة. أخرج وكتب أكثر من 26 فيلمًا حاز على جوائز دولية.

**عمر الحاج**

صحفي بشبكة الجزيرة منذ 2011، غطى الحرب في سوريا، والحرب بين أذربيجان وأرمينيا، والحرب الروسية على أوكرانيا.

**إسلام رشاد**

كاتب، وصحفي متخصص في المصادر المفتوحة بوكالة سند للتحقق الإخباري بشبكة الجزيرة.

**أنيس الجرماني**

طبيب متخصّص في الطبّ الداخلي وباحث في سياسات الأنظمة الصحّية ومساهم في منصات إعلامية عربية حول قضايا الصحة.

**بنا سلامة**

باحثة في المجال الصحي، ومؤسسة صفحة «فرفحينة» على مواقع التواصل الاجتماعي المهتمة بقضايا التغذية والصحة.

**محمد ديب**

كاتب وصحفي سوري، خريج كليّة الإعلام بحلب.

**كارلوس زوروتوزا**

صحفي مستقل ومدرب إعلامي، نشرت مقالاته في الغارديان، والجزيرة الإنجليزية، وبوليتيكو، وغيرها.

**همام كدر**

صحفي رياضي من سوريا، يعمل في قنوات بي إن سبورتس، متخصص في الصحافة الرقمية الرياضية.

**محمد زيدان**

محرر وكاتب في معهد الجزيرة للإعلام. ترجم عدّة كتب إلى العربية، أبرزها «فكرة إسرائيل: تاريخ السلطة والمعرفة».

**أميرة نصار**

صحفية فلسطينية من غزة، عملت مع شبكة «نوى» التابعة لمؤسسة «فلسطينيات»، وكتبت في منصات محلية وعربية.

**أحمد محمد المصطفى**

صحفي موريتاني. رئيس تحرير وكالة الأخبار المستقلة الموريتانية.

**حسن عبيد**

حاصل على دكتوراه في العلوم السياسية ومختص في شؤون الحركات الاجتماعية.

# مجلة الصحافة

العدد (39) I السنة التاسعة I خريف 2025

مجلة فصلية تصدر عن معهد الجزيرة للإعلام / شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام: إيمان العامري

رئيس التحرير: منتصر مرعي

سكرتير التحرير: محمد أحداد

هيئة التحرير: محمد خمايسة / محمد زيدان / محمد الأغا

تصميم: إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

التدقيق اللغوي: إبراهيم منصور، أحمد تحسين

مجلة الصحافة Aljazeera Journalism Review

http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

AJR_ Arabic@

www.facebook.com/aljazeerajournalismreview

https://www.instagram.com/ajr_arabic

ajreditor@aljazeera.net

إصدار جديد لمعهد الجزيرة للإعلام

# لا نخفي الحقيقة تحت شعار التوازن

## عاصف حميدي

حاوره: محمد أحداد

**شكلت تغطية حرب الإبادة الجماعية على غزة حدثا مهنيا استثنائيا كانت فيه قناة الجزيرة في قلب المشهد، ودفع طاقمها ثمنا باهظا. في هذا الحوار، تتحدث مجلة الصحافة مع عاصف حميدي، مدير قناة الجزيرة، حول خصوصيات التغطية، وآليات التعامل مع المراسلين، وأولوية السلامة المهنية، وكواليس صناعة القرار التحريري داخل غرفة الأخبار.**

**س: هل كان اعتماد الجزيرة على التغطية الحيّة المستمرة لحرب غزة قرارا تحريريا فرضته وتيرة الأحداث؟ وهل أثّر هذا النهج على غياب التقارير الإنسانية والتحقيقات الاستقصائية التي قد تشكل لاحقا أدلة ووثائق تاريخية للجرائم الإسرائيلية؟**

ج: تغطية الحرب على غزة لا تشبه أي تغطية صحفية أخرى من حيث الحجم، أو الامتداد الزمني، أو فظاعة المشاهد، أو كثافة الأحداث المتواترة والمرتبطة بشكل مباشر بالملف. والحقيقة أنه لم يكن اختيارا تحريريا بقدر ما كان «فرضا» مهنيا؛ لأن نقل الحقيقة بشكل حي في ظل كل ما حدث واجب مهني وأخلاقي أيضا. الصورة في هذه الحالة كانت أبلغ من الكلمة. لذلك، كانت التغطية المفتوحة ضرورة مهنية لا يمكن أن تزاحمها برامج أخرى. أما التحقيقات والبرامج الاستقصائية فتأتي لاحقا بعد جمع الأدلة وتوثيق الأحداث، لكن الأولوية في حينها كانت لنقل ما يجري لحظة بلحظة.

**س: لكن تخصيص تغطية مفتوحة لحرب الإبادة الجماعية طغى على أحداث أخرى كان من الممكن أن تحظى بأولوية إخبارية؛ مثل ما يجري في السودان. كيف يمكن تفسير ذلك من منظور مهني؟**

ج: لسنا بصدد المفاضلة بين القضايا، لكن حتى أبناء السودان تابعوا ما يجري في غزة وقلوبهم مع أهلها. القضية الفلسطينية قضية مركزيّة يتوحّد حولها الجميع. كما أنّ الجزيرة ليست شاشة واحدة، بل شبكة تضمّ قنوات ومنصّات متعددة (الجزيرة مباشر، الإنجليزية، الوثائقية، والمنصات الرقمية...)، وكل منها يغطي ملفّات مختلفة. ومع ذلك، تشعر القناة دائما بالتقصير رغم اعتزازها بما تقدّمه، وهذا أمر صحيّ من أجل تقديم الأفضل لجمهورها. وبالتالي لا يمكن القول - بأي حال من الأحوال - إن القناة أغفلت ملفات أخرى؛ لأن قوة الحدث وعمق القضية هو ما فرض علينا تخصيص الحيّز الأكبر للحرب على غزة.

**س: قتل الاحتلال 12 صحفيا ومصورا من طاقم قناة الجزيرة، وكثيرا ما سبق عمليات الاستهداف حملات تحريض علنية، كما حدث مع الزميل أنس الشريف. ومع ذلك تبقى السلامة المهنية أولوية قصوى تتقدم على الخبر: هل طرح هذا التناقض للنقاش داخل غرفة الأخبار؟**

ج: هذا النقاش كان حاضرا دائما. نحن ندرك أن غزة بما شهدته كانت بيئة استثنائية لم تشبه أي مكان آخر في العالم. ويجب أن نستحضر ذلك، ونحن نسعى دوما للحفاظ على معادلة الحفاظ على أرواح زملائنا في الوقت الذي ننقل فيه الحقيقة؛ لأن الكثيرين يتناولون الموضوع كأننا كنا نملك ترف الاختيار. الوضعية كانت واضحة جدا: لا يوجد مكان آمن في غزة وإسرائيل تستهدف الصحفيين بسلوك ممنهج وليست حالة معزولة.

كانت الأولوية المطلقة هي السلامة، وحديثنا مع زملائنا كان دائما منصبّا على الحرص، ثم الحرص، ثم الحرص على حياتهم وسلامتهم. وعندما أتيح لوائل الدحدوح أن يغادر قمنا باستقباله في الدوحة ولم نطلب منه الاستمرار؛ لأن حياته وسلامته لا تتقدم عليها أيّ أولويات أخرى.

تشعر القناة دائما بالتقصير رغم اعتزازها بما تقدّمه، وهذا أمر صحيّ من أجل تقديم الأفضل لجمهورها (تصوير: نسيم زيتون - رويترز).

كنا - أيضا - نؤكد دوما: السلامة أولا، والخبر يأتي ثانيا. لكن ما يغيب عن الكثيرين أيضا أن زملاءنا في غزة تمسكوا بالبقاء - بإرادتهم الكاملة - رغم الخطر، وهذه دلالة شجاعة وصمود وثبات لأنّهم شعروا بمسؤولية مضاعفة: هم أبناء المكان ولا أحد سواهم يمكنه نقل الصورة من الداخل. كانوا يقولون: إذا لم ننقل نحن ما يحدث، فمن سيفعل؟ ومع أننا وفرنا أقصى ما يمكن من إجراءات الحماية، فإنّه لم يكن في غزة مكان آمن فعليا كما ذكرت. ونحن نقدر شجاعة مراسلينا في نقل الحقيقة، وقد دفعنا ثمنا كبيرا من أجلها، وحريصون بكل الوسائل الممكنة على حياة صحفيينا.

> **تغطية الحرب على غزة لا تشبه أي تغطية صحفية أخرى من حيث الحجم، أو الامتداد الزمني، أو فظاعة المشاهد، أو كثافة الأحداث المتواترة والمرتبطة بشكل مباشر بالملف.**

**س: خلال الربيع العربي قيّم جزء من الجمهور التغطية الإعلامية من منظور سياسي، وحتى في حرب غزة يرى البعض أن القناة اقتربت أكثر من النشاط السياسي على حساب الممارسة الصحفية. كيف تقرأ هذا الحكم؟**

ج: دعني أطرح السؤال بشكل معاكس: إذا لم نغط ما جرى، فهل نطفئ الكاميرات حتى لا نُتهم بالنشاط السياسي؟ واجبنا أن ننقل الحدث كما هو. هناك قنوات أمريكية وأوروبية تبثّ على نطاق واسع وغطت ما يجري في غزة بشكل كبير، فما بالك بالجزيرة وهي الأقرب إلى الميدان؟! هل كان مطلوبا منها أن تصمت؟ هذه حملات تشويه قديمة تطلقها الأطراف المتضررة من كشف الحقيقة، ومن ينسجم تفكيره مع تلك الأطراف.

ومع ذلك أقول: إن عملنا هو عمل بشري قد يتخلله بعض الثغرات، وهو ليس عملا ملائكيّا، لكن الأهم أن الجزيرة متمسكة بمعاييرها المهنية؛ فالمهنية هي أوكسجين بقائنا، والرأي والرأي الآخر هما أساس استمراريتنا. ما يحكم ممارستنا المهنية داخل غرفة الأخبار وفي الميدان هو الاحتكام إلى المعايير المهنية والأخلاقية، وهذا سر استمراريتنا وسر ثقة الجمهور بنا أيضا. الجزيرة قناة مؤثرة في الرأي العام، ومن الطبيعي أن تظهر بعض الأصوات - أقول بعض الأصوات - التي ترى أن الحقيقة ليست في مصلحتها.

**س: في سياق تغطية حرب الإبادة الجماعية، ما أبرز اللحظات التي اضطررتم فيها لاتخاذ قرارات أو اجتهادات تحريرية صعبة؟**

ج: الإعلام ليس علما دقيقا كالفيزياء والرياضيات، بل ممارسة إنسانية وإبداعية ناتجة عن جهد بشري. لذلك تظهر اجتهادات ترتبط بطبيعة الصورة والمشهد. على سبيل المثال، عندما كانت تصلنا بعض المشاهد القاسية كنا نتناقش داخل غرفة الأخبار: هل نعرضها كما هي أم نغطيها مراعاةً لمشاعر المشاهد؟ البعض يرى أن التظليل يخفي جزءا من الحقيقة، وآخرون يرون أنه احترام لكرامة الضحايا ولمشاعر المتلقي. ومع مرور الوقت تحوّلت هذه النقاشات إلى معايير واضحة تُحدّد كيفيّة عرض المشاهد الصادمة دون الإخلال بالحقيقة أو الذوق العام.

من الصعب أن نقيّم أنفسنا؛ فهذه حرية متروكة للجمهور، وهو جمهور ذكي وواعٍ، لكننا نؤكّد أننا قمنا بواجبنا المِهني في نقل الحقيقة وتوضيح السياقات. نعتز بما قدمناه ونسعى دائما للأفضل. الإعلام مجال إبداعي لا سقف له، ودائما هناك مساحات للتجديد في الأساليب والقوالب.

> **إذا لم نغط ما جرى، فهل نطفئ الكاميرات حتى لا نُتهم بالنشاط السياسي؟ واجبنا أن ننقل الحدث كما هو. هناك قنوات أمريكية وأوروبية تبثّ على نطاق واسع وغطت ما يجري في غزة بشكل كبير، فما بالك بالجزيرة وهي الأقرب إلى الميدان؟! هل كان مطلوبا منها أن تصمت؟ هذه حملات تشويه قديمة تطلقها الأطراف المتضررة من كشف الحقيقة.**

**س: هل تعتقد أن ضغوطات الجمهور وانحيازاته تؤثّر في شكل التغطية وفي عملية صناعة القرار التحريري؟**

تلك ذائقته، ولكن علينا أولا أن

نعرف من هو الجمهور. الجمهور ليس كتلة واحدة، وله آراء متنوعة. لا يمكن لأي وسيلة إعلامية أن تعدّل شكل التغطية لإرضاء فئة على حساب أخرى. ما يوجّه عملنا هو المعايير المهنية والإنسانية التي التزمت بها الجزيرة منذ تأسيسها. هذه القيم هي التي تضمن لنا الاستمرار والموثوقية، والتي على أساسها نالت الجزيرة ثقة جمهورها.

كما قلت، الجمهور له خلفيات وثقافات وميول مختلفة، وينتمي إلى أجيال متعددة. الجزيرة كانت دائما مع الإنسان وستبقى. هذا هو جوهر رسالتها. الموضوعية، والإنصاف من القيم التي نترجمها في عملنا اليومي، والموضوعية ليست هي الحياد؛ فالحياد في بعض الأحيان قد يكون شكلا من أشكال التحيّز. حين يقف الصحفيّ صامتا أمام جريمة واضحة فهذا ليس حيادا، هذا انحياز سافر. أما الموضوعية فهي أن تقدم الحقيقة كما هي، في سياقها الكامل دون تزييف أو انتقاء. دعني أسوق مثالا لأبرز الموضوع بصورة أوضح: لنفترض أنّ ثَمة دولة نووية تقصف شعبا محاصرا يمتلك أسلحة خفيفة، في هذه الحالة لا يمكننا وضع الطرفين في كفّة واحدة باسم الحياد. مهمتنا أن نروي ما يحدث كما هو، وأن نمنح المشاهد الأدوات لفهم الواقع بعمقه الإنساني والمنطقي والسياسي، لا أن نخفي الحقيقة تحت شعار التوازن وإلا سيصبح هذا شعارا زائفا.

«ما يغيب عن الكثيرين أن زملاءنا في غزة تمسكوا بالبقاء - بإرادتهم الكاملة - رغم الخطر، لأنّهم شعروا بمسؤولية مضاعفة: هم أبناء المكان ولا أحد سواهم يمكنه نقل الصورة من الداخل» (تصوير: إبراهيم أبو مصطفى - رويترز).

# ماذا يعني أن تكون صحفيا استقصائيا اليوم؟

إدوي بلينيل

ترجمة: غزلان التنوتي

**قبل أسابيع، ظهرت كارلا برونـي، زوجة الرئيس الفرنسي الأسبق نيكولا ساركوزي، وهي تزيل شعار منصة «ميديا بارت». كانت تلك اللحظة رمزا لانتصار كبير للصحافة الاستقصائية، بعدما كشفت تمويل القذافي لحملة ساركوزي الانتخابية التي انتهت بإدانته بالسجن. في هذا المقال، يجيب إدوي بلينيل، مؤسس «ميديا بارت»، وأحد أبرز وجوه الصحافة الاستقصائية العالمية، عن سؤال: ماذا يعني أن تكون صحفيًا استقصائيًا اليوم؟**

إن ما يُسمّى بالصحافة الاستقصائية هو في الواقع جوهر الصحافة في معناها الحقيقي. إنها ممارسة مهنية تتحمل - حتى إنها النهاية - بكل ما تنطوي عليه من مخاطر مسؤولية الصحافة تجاه الرأي العام. لذلك وقبل الإجابة عن هذا السؤال تحديدا، من الضروري أن نتفق على مفهوم الصحافة بوجه عام، وعلى معناها ومسؤوليتها. ما الغاية من الصحافة؟ ما فائدتها الاجتماعية؟ وما هو مثلها المهني الأعلى؟

## الصحافة في خدمة الحق في المعرفة

إنه حق أساسي، حيث من حق كل إنسان أن يعرف ما يُفعل باسمه، وكل ما يهم المصلحة العامة وما يمسّ حياته اليومية، فحرية الولوج إلى معرفة الحاضر، المرتبط دائما بالماضي، شرط أساس لممارسة الحريات الفردية والجماعية.

وبدون احترام هذا الحق، سنغرق في الظلام، محرومين من نور المعرفة الذي يسمح لنا بالتصرف ككائنات حرة ومستقلة. سنكون عُميانا، أسرى الأكاذيب والأوهام والخداع الذي تنتجه الدعايات والأيديولوجيات والمعتقدات.

هذا الحق الأساسي هو الضمان لبقية حقوق الإنسان، ولممارستها وحمايتها، وقد أثبتت هذه الحقيقة قبل أكثر من قرنين خلال الثورة الفرنسية. فقبل أسبوعين من اعتماد إعلان حقوق الإنسان والمواطن في 26 آب/ أغسطس 1789 الذي ينصّ على أن «الناس يولدون ويظلون أحراراً ومتساوين في الحقوق» أعلن أول رئيس لبلدية باريس، وكان أيضاً أول رئيس للجمعية الوطنية، في 13 آب/ أغسطس، أن «العلنية هي صونُ للشعب».

إن كلمة «العلنية» في هذا السياق، لا علاقة لها بالإعلانات التجارية، بل تعني جعل ما ينطوي على مصلحة عامة متاحاً للجميع.

بمعنى آخر، كي يتمكن الشعب من نيل حقوقه أو ابتكارها أو حمايتها، عليه أولاً أن يعرف؛ عليه أن يكون مُطّلعاً بحرية على كل ما يخصه. فالمعرفة هي ما يحميه، ومن هنا نحتت كلمة «الحماية» (الصون) في أواخر القرن الثامن عشر. حين طُرح هذا المبدأ، لم تكن المساواة في الحقوق متحققة، حيث كان لا يزال عهد الامتيازات الوراثية مهيمنا، ولم يكن هناك حق في التصويت، ولا حقوق اجتماعية، وكانت العبودية قائمة، وتُثري فرنسا في مستعمراتها، وكانت النساء خاضعات لإرادة الرجال، واستمر انتهاك حقوق الشعوب المستعمَرة حتى الأزمنة الحديثة... إلخ.

إن استحضار هذا التاريخ يعني التأكيد على أن مسألة الإعلام كانت، وما زالت، في صميم مسيرة تحرر الشعوب وانعتاق الأفراد. ولهذا السبب، فإن الأنظمة السلطوية – أيا كانت – تعد الصحفيين خصومها الأوائل قبل المعارضين السياسيين المعلنين. فكل نزعة محافظة، متمسكة بالامتيازات التي يمنحها لها النفوذ أو المال أو الأصل، تخشى الحقائق التي تفضحها وتكشف زيفها.. تلك القوى تحلم بواقع جامد لا يتغير، بينما الحق في المعرفة يهدد هذا الجمود، لأنه يمثل دعوة للتغيير، ورفضًا للحتمية، وممارسة للحرية الفكرية ومواجهة للظلم والاستبداد..

## الإعلام ليس إنتاجاً للآراء

كون الإنسان حراً ومستقلا، يعني امتلاك القدرة على الوصول إلى المعرفة والعلم. بعد الانتهاء من التعليم المدرسي والوصول إلى مرحلة النضج، يصبح إلى الوصول إلى المعرفة متاحا عبر الجامعة الشعبية المفتوحة للجميع، أي وسائل الإعلام الإخبارية. فمن خلالها أستطيع أن أجد طريقي في عالم متقلّب وغير مستقر، تهتز فيه اليقينيات وتُختبر فيه القناعات. لكن هذا يفترض أن تبقى وسائل الإعلام وفيةً لرسالتها الأولى: إنتاج المعلومات، أي الحقائق الواقعية.

> **الصحافة ليست تعبيراً عن الآراء. صحيح أن الرأي والمقال الافتتاحي والتعليق هي جزء من الأدوات الصحفية، لكنها لا تُعرّف المهنة بحد ذاتها. امتلاك الآراء ليس ميزة خاصة بالصحفي، فكل إنسان له آراؤه، مهما كان عمله أو مكانته، آراء عقلانية أو متطرفة، عميقة أو مجرد هلوسات، مسؤولة أو مستفزة إلخ... لكن هيمنة الآراء وحدها لا تفتح باب المعرفة، بل قد تؤدي إلى «ديكتاتورية الآراء».**

فالصحافة ليست تعبيراً عن الآراء. صحيح أن الرأي والمقال الافتتاحي والتعليق هي جزء من الأدوات الصحفية، لكنها لا تُعرّف المهنة بحد ذاتها. امتلاك الآراء ليس ميزة خاصة بالصحفي، فكل إنسان له

تواجه الصحافة الاستقصائية تحديات كبرى أبرزها سيطرة رجال الأعمال والسياسيين على مؤسسات وسائل الإعلام والمنصات الرقمية (تصوير: هارون أوزالب- غيتي).

آراؤه، مهما كان عمله أو مكانته، آراء عقلانية أومتطرفة، عميقة أو مجرد هلوسات، مسؤولة أو مستفزة إلخ... لكن هيمنة الآراء وحدها لا تفتح باب المعرفة، بل قد تؤدي إلى «ديكتاتورية الآراء»، حيث يتحول الحوار إلى صراع شامل بين قناعات متعصبة، يرفض فيها كل طرف الاستماع للآخر، ويحتكم حصرا إلى أحكامه المسبقة ومعتقداته لرفض الآخر وإدانته أوالانتقاص منه، عدم الإصغاء إلى حججه أو عدم أخذ اعتراضاته بعين الحسبان.

تتمثل مسؤولية الصحافة أيضا في إجبارنا على التفكير ضد قناعاتنا المسبقة، ومواجهة حقائق قد تزعجنا لأنها تكشف ما نجهله أو نتجاهله عمدا.

**إن أخطر أعداء الحقيقة ليس الكذب، بل القناعة العمياء، ذلك الغشاء الذي يمنعنا من رؤية جزء من الواقع الذي لا يتوافق مع أحكامنا المسبقة. ولهذا، فإن مهمة الصحافة العظيمة والصعبة هي تزويدنا بمعلومات دقيقة، موثوقة، ومؤكدة بالمصادر، تشكل أجزاءً من فسيفساء الواقع. وأثمن تلك الحقائق هي التي تُجبرنا على النظر إلى ما كنا نرفض رؤيته.**

إن أخطر أعداء الحقيقة ليس الكذب، بل القناعة العمياء، ذلك الغشاء الذي يمنعنا من رؤية جزء من الواقع الذي لا يتوافق مع أحكامنا المسبقة. ولهذا، فإن مهمة الصحافة العظيمة والصعبة هي تزويدنا بمعلومات دقيقة، موثوقة، ومؤكدة بالمصادر، تشكل أجزاءً من فسيفساء الواقع. وأثمن تلك الحقائق هي التي تُجبرنا على النظر إلى ما كنا نرفض رؤيته.

وهذه المهمة أصبحت أكثر إلحاحا من أي وقت مضى. ففي زمن شبكات التواصل الاجتماعي التي تهيمن عليها الاحتكارات الأمريكية المشجعة على التفاعلات الفورية، يكمن الخطر في أن تطغى الآراء على الحقائق. وهذه هي الحيلة الجديدة

للسلطات الظالمة والمهيمنة التي نظّر لها مستشارو دونالد ترامب. لم يتردد ستيف بانون - بكل تلك الوقاحة والعنف الذي يميز شخصيته؛ إذ يعد من أبرز منظّري اليمين المتطرف الأمريكي - في الدعوة إلى ما سماه «إغراق المنطقة بالخراء»، وهذا يعني تدمير حقيقة الوقائع من خلال دكتاتورية الآراء الاكثر تطرفا، والأكثر تجاوزا، والأكثر هلوسة، والأكثر جنونا، والأكثر انغماسا في نظرية المؤامرة، وهو ما سمّاه ترامب نفسه «حقائق بديلة»، أي أكاذيب مغلّفة..

## أكثر المعلومات نفعاً هي تلك غير المسبوقة

إن الوصول إلى معارف جديدة يزيد من حريتنا في الاختيار والفعل، إذ يجعلنا أقل تبعية ليقينياتنا، ويحررنا من القيود التي تكبلنا. ومن خلال كشفه لنا عن حقائق مجهولة أو عوالم غير معروفة، يدفعنا إلى الحركة، ويُخرجنا من اللامبالاة والجمود، ويوقظ فينا الوعي والحسّ النقدي. لذلك، فإن أنفع المعلومات هي تلك التي تفتح أمامنا آفاقاً لم نكن نتخيلها، وآمالاً كانت تبدو مستحيلة، وإمكاناتٍ لم تخطر لنا على بال.

ومن هذا المنطلق، فإن ما يُسمى بالصحافة الاستقصائية هو جوهر مهنة الصحافة، فبالاعتماد على التحقيق الميداني، وكشف الأسرار المخفية، وإظهار الحقائق المحظورة، يكشف هذا النمط الصحفي ما تخفيه السلطات السياسية والاقتصادية والأيديولوجية لحماية مصالحها الخاصة. ذلك أنها تفضح التناقض بين الخطاب والممارسة، والانتهاكات الأخلاقية، والفساد المستتر، وإساءة استخدام السلطة، والتضارب في المصالح، والجرائم التي تُغطّيها الدعاية.

ممارسة هذا النوع من الصحافة تعني التأكيد أن المهنة لا تُمارس لخدمة مالك الوسيلة الإعلامية أو السلطة الحاكمة، بل لخدمة الجمهور وحده. ولهذا فإن الصحافة الاستقصائية لا تنفصل عن الدفاع الصارم عن استقلالية الصحفي؛ لأن رسالته العامة يجب ألا تُقيد بأي مصلحة خاصة، وهذا لا يعني أن الصحافة فوق القانون، بل يعني أنها تخضع للمساءلة في إطار مبدئي يرسخ سابقة ديمقراطية في مفهوم الإعلام..

> **الصحافة الاستقصائية لا تنفصل عن الدفاع الصارم عن استقلالية الصحفي؛ لأن رسالته العامة يجب ألا تُقيد بأي مصلحة خاصة، وهذا لا يعني أن الصحافة فوق القانون، بل يعني أنها تخضع للمساءلة في إطار مبدئي يرسخ سابقة ديمقراطية في مفهوم الإعلام.**

وهكذا، في فرنسا مثلا، عندما يُقاضى الصحفيون من قبل من أزعجتهم تحقيقاتهم، فإنهم يدافعون أمام القضاء على مبدأ «حسن النية» التي نقصد منها احترام ثلاثة شروط مهنية أساسية تسوّغ نشر المعلومات:

أولاً، مشروعية الهدف المتوخّى، أي كون المعلومات تنطوي على مصلحة عامة (وفية لحقّ المعرفة)؛

ثانياً، جدّية التحقيق، أي وجود أدلّة على عمل بحثي موثّق (مصادر، وثائق، شهادات... إلخ)؛

وأخيراً، احترام مبدأ التناقض والاعتدال في التعبير (مراعاة ردّ فعل الأشخاص أو المؤسسات المعنيّة بالموضوع).

## الصحافة الاستقصائية هي صحافة التأثير

الكشف في حد ذاته يعني أن نُقدّم للمجتمع مرآة يرى فيها صورته الحقيقية، بعيداً عن الأحكام المسبقة والجهل والتضليل. فالإفصاح عن الحقيقة يُحرّك المجتمع، ويُحدث تحولاً في الرأي العام ويفتح آفاقاً جديدة ويزعزع الجمود والاستسلام في عالم يعيش داخل أوهامه وأكاذيبه.. وهكذا تتجلّى الوظيفة الحقيقية للصحافة في: أن تكون فاعلاً سياسيا في فضح «فضيحة الحقيقة». فمهنة الصحافة لا تقوم أساساً على المقال الافتتاحي أو التعليق أو الموقف، بل سلاحها الأول هو التحقيق، والتقرير الميداني، والتحليل. لقد بحثت، فوجدت، وأقدّم لكم البرهان. لقد رأيت، وسمعت، وأروي لكم. لقد تعلمت، وفهمت، وأشرح لكم.

هناك ثلاثة أنواع اساسية من التحديات التي تواجهنا بوصفنا صحفيين: صياغة المعنى، تفسير الواقع وتقديم الفهم العميق ووضع الأحداث في سياقها والتنوير. يقول روبرت بارك، الصحفي الأمريكي الذي أصبح لاحقاً أحد رموز علم الاجتماع في جامعة شيكاغو، في مطلع القرن العشرين:

«الصحفي الذي يمتلك الحقائق هو مصلح أكثر فعالية من كاتب الافتتاحيات الذي يكتفي بالخطب الرنانة، مهما بلغت فصاحته».

قد يبدو هذا المثال المهني والديمقراطي مثالياً أو حتى «أسطورة سيزيفية» تتكرر باستمرار وتُخفق أحياناً، لكنه لا يفقد معناه. فهو يُعلّمنا أول دروس السياسة الحقيقية: أن نواجه الصعوبات بدلاً من تجاهلها. إنه «كلب الحراسة» كما وصفته المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، حيث ليس دور الصحافة أن تُخدّر الناس بالأخبار السارة التي تُطهّر الواقع وتُطمئن العقول. فبيداغوجيتها تقوم على القلق والتحدي تماماً كما يتعلّم التلميذ أو الطالب من خلال مواجهته للمشكلات، ومحاولته حلّها وإيجاد الحلول بنفسه. يتقدّم الشعب صاحب السيادة عندما يكتشف ما يُعارض آماله، ويواجه العقبات ويسعى إلى تجاوزها.

من قضايا الفساد «المافيوي» إلى العنف القائم على النوع والعنف الجنسي، مروراً بآلاف المواضيع الأخرى ذات المصلحة العامة، تُعلن هذه الصحافة وتتحمّل مسؤولية الأثر الذي تُحدثه تحقيقاتها وكشفها للحقائق.

**إن الوصول إلى معارف جديدة يزيد من حريتنا في الاختيار والفعل، إذ يجعلنا أقل تبعية ليقينياتنا، ويحررنا من القيود التي تكبلنا. ومن خلال كشفه لنا عن حقائق مجهولة أو عوالم غير معروفة، يدفعنا إلى الحركة، ويُخرجنا من اللامبالاة والجمود، ويوقظ فينا الوعي والحسّ النقدي.**

ميديا بارت تشكل نموذجا بارزا للمنصات الاستقصائية البديلة المعتمدة على اشتراكات القراء ( تصوير: هارون أوزلاب - غيتي).

## ميديا بارت.. مختبر لصحافةٍ مهدَّدة

هي منصة إلكترونية تأسست في مارس/ آذار سنة 2008، تعتمد كليا على دعم قرائها، بدون أي دعم حكومي، ولا تبرعات خاصة ولا إعلانات تجارية ولا حتى مساهم رأسمالي. ورغم ذلك فهي مؤسسة تحقق هامشا مهما من الأرباح منذ أربعة عشر عاما. إذ لا تعتمد إلا على الاشتراكات كمصدر وحيد للدخل. واليوم تصنف ميديا بارت في المرتبة الثالثة بين الصحف الإخبارية الفرنسية بعد لوموند ولوفيغارو محافظة على استقلالها الاقتصادي بفضل هيكل غير ربحي يدعى «صندوق الصحافة الحرة» الذي يضمن حمايتها من أي استحواذ أو ضغط.

ويعود الفضل في هذا النجاح إلى دفاعها الصارم عن الصحافة الاستقصائية ذات تأثير في مواجهة كل أشكال السلط السياسية منها والاقتصادية... إلخ.

لقد أثارت تحقيقات ميديا بارت- وعلى رأسها قضية التمويلات الليبية، التي أدت إلى إدانة الرئيس الفرنسي الأسبق نيكولا ساركوزي-، اهتمام الرأي العام؛ لأنها جسدت قيمة أساسية: قيمة المعلومة التي تجمع بين البعد السياسي أي، خدمة الديمقراطية والبعد المهني، أي خدمة الحقيقة.

لكن هذا النجاح لا يجب أن يخدعنا بالمظاهر، فكل ما ندافع عنه اليوم يتعرض لهجوم من جميع الجهات من قبل قوى دولية واقتصادية لا تحبّ الحرية لأنها تهدد امتيازاتها. وبدل أن نشكو من هذه الهجمات، علينا أن نعدّها دليلاً على نجاحنا؛ لأنها تُظهر إلى أيّ مدى تمثل الصحافة ذات المصلحة العامة طليعة نضال الشعوب من أجل سيادتها.

ولو احتجنا إلى برهان أخير، مأساوي إلى أقصى حد، فقد قدّمته المجزرة التاريخية غير المسبوقة التي طالت الصحفيين الفلسطينيين الذين اغتالتهم القوات الإسرائيلية في غزة. لقد قُتل هؤلاء الزملاء والزميلات لأن عملهم - الذي جسد حقيقة الوقائع - كشف الجريمة ضد الإنسانية الجارية هناك. إنها حقيقة لم يتمكن اغتيالهم من اغتيالها؛ لأن الرأي العام العالمي - كما العدالة الدولية - يعلمان أن إبادة جماعية قد وقعت في قطاع غزة.

لم يموتوا عبثاً. وأقلّ ما أستطيع فعله لتكريم ذكراهم هو أن أهدي إليهم هذا الدفاع عن مهنتنا المشتركة.

تتمثل مسؤولية الصحافة أيضا في إجبارنا على التفكير ضد قناعاتنا المسبقة، ومواجهة حقائق قد تزعجنا لأنها تكشف ما نجهله أو نتجاهله عمدا (تصوير: روبرت ألكسندر - غيتي).

# من الخبر إلى التوثيق.. دروس عملية من تغطية الحرب على غزة

هشام زقوت

**منذ اللحظة الأولى لحرب الإبادة الجماعية التي شنتها إسرائيل على غزة، كان هشام زقوت، مراسل الجزيرة، شاهدًا على الجوع والدمار وجرائم الحرب، وعلى اغتيال زملائه في الميدان. إنها معركة من أجل البقاء والتوثيق، تتجاوز مجرد التغطية ومتابعة التفاصيل اليومية.**

حين نسأل كيف غطينا الحرب على قطاع غزة في ظل كل ما يحيط بنا من ظروف قاسية واستهداف مباشر، وسعي الاحتلال لمنع خروج أي صوت أو صورة، فإن السؤال لا يتعلق بالتقنيات الصحفية بقدر ما يتعلق بفلسفة البقاء؛ فخلال أكثر من سبعمئة يوم، خضنا أطول تغطية صحفية متواصلة في التاريخ الحديث شهوداً فضلا عن كوننا صحفيين. وخلال هذه الحرب مررنا بتجارب فريدة، وطورنا خبراتنا للبقاء على قيد الحياة ومواصلة العمل، في وقت كنا نفقد كل يوم زميلا صحفيا، حيث قتل الاحتلال أكثر من 256 صحفيا وصحفية بشكل ممنهج وتحريض مسبق لأنهم شهود الحقيقة. وها أنا اليوم أكتب جزءا من تجربتي العملية التي عشت فصولها على مدار عامين في غزة.

## شهود على الإبادة

منذ بدء الحرب على غزة، كنا نتنقل بين الشوارع لرصد القصف ونقل الحدث، ولكن مع تحول الاحتلال يوماً بعد آخر إلى إبادة كل ما في غزة، تغير الهدف، ولم يعد السبق مهماً بقدر ما كان التوثيق هو الأهم، وبات دور الصحفي توثيق حدث تاريخي، وشهادات شعب يباد. هذا التحول هو حجر الزاوية في تغطية الحروب الممتدة، إنه التحول من السؤال ماذا حدث اليوم؟ إلى كيف سأوثق ما حدث لاستخدامه دليل إدانة، ومن أجل هذه المهمة اشتغل صحفيو غزة بناء على مجموعة من التدابير الجديدة. كان لزاماً علينا تجاوز إحصائيات الضحايا؛ ففي هذا النوع من التغطيات، تأسرنا الأرقام وتوقعنا في فخ يجرّد الحدث من إنسانيته، ولذا كان العمل الأهم هو مقاومة تحويل الضحايا إلى مجرد أرقام، وذلك عبر ذكر أسمائهم وقصصهم والبحث عن تفاصيل استشهادهم.

وانتقل تركيزنا إلى البحث عن التفصيل الصغير الذي يروي القصة كاملة، وعدم الاكتفاء باللقطات الواسعة للدمار، والبحث عن تفاصيل تكسر حاجز الاعتياد وتجبر المشاهد على التفكير، أدركنا ضرورة ألا نوثق الدمار فحسب، بل نوثق الحياة كذلك، حياة ما قبل الحرب والدمار، كنا نعرض صور وفيديوهات لقطاع غزة قبل الحرب، جنباً إلى جنب مع مشهد الركام، فهذا التناقض له أثر قوي ويرسخ في ذاكرة المشاهد. الأهم من ذلك كله، هو التعامل مع الفيديوهات على أنها دليل، فعند تصوير موقع القصف، كنا نحرص على توثيق المكان والزمان بدقة، وتصوير بقايا الأسلحة والصواريخ المستخدمة، وشهادات المصابين والناجين من عمليات القصف، هذا الإجراء يحول المادة المصورة أو البث المباشر من مادة إخبارية إلى وثيقة أو دليل.

## السلامة أولا

عند الحديث عن السلامة المهنية، فأنت تتحدث عن شيء مفقود، ففي غزة لم يكن هناك مكان آمن، بل إن قوات الاحتلال تجاوزت كل الخطوط الحمراء، فقصفت المستشفيات ودور العبادة، وكل المؤسسات حيوية كانت أم صحفية، بل استهدفت الطواقم الطبية والدفاع المدني والصحفيين، وباتت السترة والخوذة مجرد رموز لا تمثل أي حماية للصحفيين، بل إن التجربة بينت أن ارتداءها قد يشكل خطرا عليك أكثر من أنها وسائل للحماية.

لذا أدركنا أن السلامة الحقيقية تكمن في الحالة الذهنية، لا في المعدات، وبات من المهم للبقاء على قيد الحياة، إفراد بعض الوقت للتخطيط، والتحليل الميداني، والعمل على الانضباط الصارم. تطلب هذا الأمر فهم الوعي الظرفي الذي يشير إلى القدرة على فهم ما يحدث حولك، وتفسير معاني تلك المعلومات، والتنبؤ بما قد يحدث في المستقبل القريب، ويشمل ذلك مراقبة البيئة باستمرار، والانتباه، وتقييم الوضع، وقد كان ذلك من خلال قراءة ما يدور حولنا، وسؤال السكان المحليين باستمرار، أو سائقي الإسعاف ورجال الدفاع المدني، لكن الصحفي يجب أن يشك دائماً ويتساءل، هل الشوارع فارغة بشكل غير معتاد؟ هل تحليق الطائرات المسيرة مختلف هذه المرة؟ هل صوت الطائرات المسيرة أعلى؛ مما قد ينبئ بغارة؟ هذه كلها مؤشرات خطر قد تسبق القصف أو عمليات التوغل.

> **كان لزاماً علينا تجاوز إحصائيات الضحايا؛ ففي هذا النوع من التغطيات، تأسرنا الأرقام وتوقعنا في فخ يجرّد الحدث من إنسانيته، ولذا كان العمل الأهم هو مقاومة تحويل الضحايا إلى مجرد أرقام، وذلك عبر ذكر أسمائهم وقصصهم والبحث عن تفاصيل استشهادهم.**

ويضاف إلى ذلك، استيعاب أن الظروف الميدانية تتغير باستمرار، فالطريق الذي تتجه منه لمكان ما، قد لا يكون سالكا للعودة، والتنقل في ساعات المساء ليس خيارا متاحا، وما تجده اليوم في السوق

منذ عامين، لم ألمس ورقة، وأغلب الأحيان تقاريري، تصويري، ومونتاجي يتم بهذا الموبايل (خاص مجلة الصحافة).

أو ما هو متوفر من معدات لن يكون متاحاً غداً في ظل الحصار الإسرائيلي المطبق على القطاع، فلا تؤجل شيئاً للغد وتوقع أن يحدث الأسوأ، وأنجز جميع مهامك اليوم.

نتيجة لذلك، حرصنا على ألا نضع كل معداتنا في سيارة واحدة أو حتى في مكان واحد، سواء كان ذلك خيمة أو مكتبا أو سيارة، كنا نوزعها على أفراد الفريق وفي مواقع مختلفة، وهذا يضمن أنه في حال تعرض جزء من الفريق للاستهداف، يمكن للجزء الآخر الاستمرار في العمل.

ولأن استمرار التغطية مرتبطة أيضا بتوفير مقومات الحياة، وليس المعدات وبالتالي يجب على الفريق أن يخطط لتخزين كميات كافية من الغذاء والماء والوقود والعلاج، والأهم، القدرة على نقل هذه الكميات، ففي الحروب الطويلة، يصبح تأمينها جزءا من العمل الصحفي.

ولعل النقطة الأهم في منظومة السلامة هذه، هي ضرورة وجود قائد للفريق، فالتردد في لحظات الخطر تساوي الموت، فاختلاف الآراء حول هل ننسحب الآن أم ننتظر يمكن أن يكون الفارق بين الحياة والموت، ويجب الاتفاق على القائد مسبقاً، والاتفاق كذلك على أن قراره يجب أن يطاع فوراً وبدون نقاش في لحظة الخطر، ويأتي النقاش لاحقاً بعد العودة إلى منطقة آمنة.

> **أدركنا أن السلامة الحقيقية تكمن في الحالة الذهنية، لا في المعدات، وبات من المهم للبقاء على قيد الحياة، إفراد بعض الوقت للتخطيط، والتحليل الميداني، والعمل على الانضباط الصارم.**

## أخلاقيات صحفية تحت النار

خلال الحرب على غزة، الشهداء والمصابون ليسوا غرباء، هم جيران، أصدقاء، وأحيانا أفراد من العائلة، وبالتالي، فإن مفهوم أخلاقيات الصحافة والموضوعية، قد يكون مختلفا ونسبيا ويسري عليها عدة اعتبارات. ولعل القاعدة الأسمى هي أن كرامة الضحية فوق كل اعتبار، حيث كنا نتساءل دائماً، هل تصوير هذا الوجه الدامي ضروري للقصة، أم أنه مجرد استغلال للصدمة؟ وهل هذا المشهد يوثق الجريمة، أم ينتهك كرامة الضحية؟

لهذا، بدلا من التركيز على ملامح الضحية، ركزنا على تفاصيل المشهد كاملة: المسعفون ورجال الدفاع المدني يعملون بتفان لإنقاذ الأرواح، الشهداء والمصابون بتّفان بوسائل بدائية، والدمار الواسع الناتج عن استخدام صواريخ ضخمة. كان ذلك، في رأينا، توثيقًا للجريمة بشكل أعمق وأقوى، من دون استغلال الألم الإنساني الفردي.

وحتى في خضمّ الحدث، كانت هناك طريقة للحصول على الموافقة عبر الاقتراب دون تصوير مسبق؛ فمجرد نظرة عين أو إيماءة كانت كافية للبدء بالتصوير. وفي المقابل، كان التوقف عن التصوير واجبا فوريا إذا طلب ذلك من المصابين أو من أهالي المنطقة التي تعرضت للقصف، أو حتى داخل المستشفى؛ لأن إنسانية الصحفي جزء لا يتجزأ من مهنيته.

> **لعل النقطة الأهم في منظومة السلامة هي ضرورة وجود قائد للفريق، فالديمقراطية في لحظات الخطر تساوي الموت، فاختلاف الآراء حول هل ننسحب الآن أم ننتظر يمكن أن يكون الفارق بين الحياة والموت.**

ولعل أصعب المواقف تلك التي كان يصاب فيها الأطفال، وفي كثير من الأوقات اتخذت قرارا بعدم إجراء مقابلات مع الأطفال إلا في حالات خاصة جداً، وحتى عند إجراء مقابلات، لا نسأل الطفل عن شعوره بعد فقد عائلته، أو بعض الأسئلة التي تكون قاسية على طفل دون أي أساس مهني، بل يمكن سؤاله عما حدث، عمن يبحث، وإتاحة الفرصة له ليروي قصته بكلماته هو.

## الموبايل هو الحل

شكل تدمير المكاتب وانقطاع الكهرباء والإنترنت عائقاً أساسياً أمام التغطية، وبات الهاتف المحمول هو غرفة الأخبار المتكاملة. منذ عامين، لم ألمس ورقة، وأغلب الأحيان تقاريري، تصويري، ومونتاجي يتم بهذا الموبايل، لكن هذا يتطلب إعداداً مسبقاً. القاعدة هي أنه لا وقت للتجربة في الميدان، لذا يجب ضبط إعدادات كاميرا الموبايل مسبقاً، يجب أيضاً تحميل تطبيق مونتاج والتدرب عليه، ففي وقت الأزمة، لا وقت للتعلم، ويجب أن تكون قادراً على القص والدمج ووضع تعليق صوتي وتصدير تقريرك في دقائق. اكتشفنا أن الفيديو الرديء بصريا لكنه واضح الصوت يمكن استخدامه، أما الفيديو المتقن بصريًا وصوته مشوش فهو عديم الفائدة. لذلك، يُعد وجود ميكروفون مخصص للهاتف ضرورة لا ترفا، إلى جانب امتلاك مخزن طاقة (باور بانك)، خاصة في ظل انقطاع الكهرباء طوال فترة الحرب. كما أن وجود شاحن شمسي صغير أو شاحن سيارة قد يشكل إنقاذًا حقيقيًا في مثل تلك الظروف. وفي ظل انعدام الإنترنت، من المهم دائماً أن تتوفر في الموبايل خدمة الشريحة الإلكترونية (eSIM)، فقد تكون الحل الوحيد للتواصل، كما أن تبادل الموارد مع زملاء آخرين قد يتوفر لديهم إنترنت فضائي هو مفتاح إيصال القصة للعالم، وأخيراً، بمجرد العودة من الميدان، أول ما تفعله هو تفريغ موادك على «هارديسك» خارجي، مع ضرورة الاشتراك في خدمة سحابية لرفع الملفات بشكل مستمر، فلا يجب ترك المواد على الهاتف فقط.

هذه الخلاصات التي تعلمتها في حرب كان كل يوم فيها صراعاً من أجل البقاء، والاستمرار على قيد التغطية، حرب علمتنا أن أهم معدات الصحفي ليست الكاميرا باهظة الثمن، بل هي قدرته على الصمود، والابتكار، والإصرار على مواصلة العمل.

عند تصوير موقع القصف، كنا نحرص على توثيق المكان والزمان بدقة، وتصوير بقايا الأسلحة والصواريخ المستخدمة، وشهادات المصابين والناجين من عمليات القصف، هذا الإجراء يحول المادة المصورة أو البث المباشر من مادة إخبارية إلى وثيقة أو دليل (تصوير: خميس الريفي - رويترز).

# الفيلم الوثائقي القصير.. الذاكرة المضادة للإبادة

بشار حمدان

**فرضت تغطية حرب الإبادة الجماعية على غرف الأخبار إيقاعا سريعا من المتابعات اليومية همش الكثير من القصص الإنسانية الصحفية. في هذه المساحة، يشتغل الفيلم الوثائقي القصير على البحث عن زوايا إنسانية تمثل امتدادا لعمل غرف الأخبار في التغطية الإخبارية، وترسيخا للذاكرة الجماعية ضد رواية الاحتلال.**

في الحروب لا تُقاس الحقيقة بحجم الصور والفيديوهات التي تُبث، بل بما ينجو منها من النسيان بعد أن تُطفأ الكاميرا، وبما يظل حاضرا ليصبح شاهدا على ما جرى.

وفي الحروب، تمتلئ الشاشات باللقطات الحيّة وبالمشاهد المتتالية للقتل والقصف والتدمير، وبلحظات إنسانية كثيرة. لكن مع زحمة الأحداث وسباق العواجل تتبخر الكثير من قصص الناس بسبب ضغط البث، ليس المستمر أو المفتوح فحسب، بل الذي يفرض التنويع في التغطية التي تسعى لنقل الحدث وملاحقة كل ما هو خاص وحصري، بينما تغيب الكثير من تفاصيل الألم والمعاناة، إلا ضمن الحدود التي تحتملها النشرات.

وهكذا بدت الحرب «الإسرائيلية» على غزة التي اندلعت في أكتوبر 2023، اختبارا لقدرة الصورة - كذاكرة - على الصمود في وجه السيل الإخباري المتلاحق وانشغال التغطيات بالعدّ اليومي للمجازر والضحايا وبالتحليل للأحداث.

ومع حضور بعض التفاصيل الإنسانية في تقارير نشرات الأخبار من خلال تغطيات المراسلين الميدانية في محاولة لإيصال صوت الضحايا والمتضررين من الحرب، فإنها تظل ضمن الإطار الإخباري الذي يفرض زمنا محدودا يُكثّف فيه التعبير عن الحدث نفسه وليس عما وراء الصورة.

## «في زحمة الأخبار»

مع غياب الوثائقيات أو قلّتها خلال التغطيات، يكمن التحدي في كيفية كسر الإيقاع الإخباري المعتاد بقصص تأخذ المشاهد إلى مساحات أكثر عمقا وتأملا، وعدم الاكتفاء بالحدث نفسه لفهم أثر ما يجري على الإنسان، وتوثيق ذلك مكانيا وزمانيا حتى لا يتلاشى في بحر الأخبار.

وبينما تجيب الأخبار على «ماذا حدث؟» و«وأين ومتى حدث؟» فيصبح الحدث نفسه هو الموضوع، فإن الوثائقي لا يسعى فقط للإجابة على السؤال «لماذا حدث ذلك؟»، بل مهمّته الغوص فيما وراء الحدث وتجاوُز ذلك إلى إبراز كيف عاشه الناس، ناقلا أحاسيسهم ومشاعرهم وخوفهم وفرحهم وقلقهم، وهو ما لا يُمكن أن تستوعبه نشرات الأخبار إلا بلحظات سريعة. بعض هذه المشاعر يمكن أن تستوعبها وسائل التواصل الاجتماعي بشكل سطحي دون التعمّق في دواخل الناس كما

> **في الحروب، تمتلئ الشاشات باللقطات الحيّة وبالمشاهد المتتالية للقتل والقصف والتدمير، وبلحظات إنسانية كثيرة. لكن مع زحمة الأحداث وسباق العواجل تتبخر الكثير من قصص الناس بسبب ضغط البث.**

ينبغي أن يكون في الفيلم الوثائقي.

لذلك تظهر أهمية الفيلم الوثائقي القصير الذي يعتمد على نفس أدوات الفيلم الطويل من بحث وتصوير ومونتاج، ويتقاطع مع الخبر أو التقرير الإخباري في الاختصار والمدة أحيانا. لكن مُخرجه ليس كالصحفي الذي يبحث عن المعلومة التي لها الأولوية في التغطية، بل يبحث عن التفاصيل في الوجوه، والكلام والصمت، وفي الخسارات الصغيرة التي لا تتصدر العناوين لكنها تكشف جوهر المأساة.

فمع تتابع الأخبار وزخمها، يُخشى من أن يفقد المُشاهد حسّه الإنساني تجاه ما يجري؛ فالصور المتكررة قد تُولِّد نوعا من اللامبالاة، والوجع القادم عبر الشاشات قد يصير مألوفا، لكن يأتي الفيلم الوثائقي القصير ليحاول ترتيب العلاقة بين الصورة والمتلقي وليخلق تواصلا بينه وبين أبطال الفيلم.

## «يطيل عمْر الحكاية»

في الأيام الأولى من الحرب على غزة التي امتدت عامين، انتشرت مقاطع مصورة لامرأة فقدت أطفالها جميعا في قصف استهدف المنزل الذي لجأت إليه. اختارت وسائل الإعلام ما يخدم تغطيتها الإخبارية؛ فاكتفت بعرض (1) مشاهد قصيرة لدموعها ونحيبها مع ذكر الحدث الذي تسبّب في الفاجعة.

لكن في مقطع آخر (2) كانت الأمّ تودّع أطفالها بكلمات تمزق القلب؛ تحدثهم كما لو أنهم ما زالوا أحياء، وتغمس كل جملة بقدر من الوجع لا يُحتمل. مثل هذا الرثاء الطويل لا يجد مكانا في التغطيات الإخبارية، رغم أن بعضا من هذا الألم تسرّب إلى منصات التواصل الاجتماعي. ومع ذلك، فإن حكاية هذه الأم - كغيرها من قصص المفجوعين - تُطوى مع نهاية الخبر.

ما يجعل الفيلم الوثائقي القصير مهمّا هنا هو أنه سيطيل عمْر الحكاية وسيقدّم فهما أعمق للعلاقة بين الإنسان والحدث نفسه. سيمنحها بعدا إنسانيا يتجاوز اللحظة، وسيفتح الباب أمام

تتبّع حكايتها في فيلم طويل لاحقا؛ فمشهد الرثاء سينتهي خلال دقائق لكن الوحدة التي ستعيشها هذه المرأة خارج إطار الصورة لن يصلنا إن لم يُوثَّق كما يجب؛ فنحن نوثّق حتى لا ننسى أن أطفالها ليسوا مجرد أرقام.

> **مُخرج الفليم الوثائقي ليس كالصحفي الذي يبحث عن المعلومة، بل يبحث عن التفاصيل في الوجوه، والكلام والصمت، وفي الخسارات الصغيرة التي لا تتصدر العناوين لكنها تكشف جوهر المأساة.**

الكاميرا في الوثائقي القصير لا تكتفي بنقل مشاهد القصف أو النزوح، بل تحاول تسليط الضوء على هذه التجربة الصعبة نفسها؛ على معاناة عائلة نازحة فقدت بيتها، أو طبيب يقاوم العجز في المستشفى الذي يوشك على الانهيار، أو ناج يحاول انتشال عائلته من تحت الأنقاض. واللحظة هنا ليست الحدث، إنما هي امتداد للمشاعر وما يعيشه هؤلاء الناس وكيف ينعكس على حياتهم.

وقد ذهبت الجزيرة الإنجليزية في أحد الأفلام الوثائقية القصيرة أبعد من ذلك؛ فلم تكتف بتقديم البُعد الإنساني في الفيلم الوثائقي «مهمة إنقاذ في غزة» (3) - الذي يرافق أفراد الدفاع المدني خلال يوم واحد، ويبرز كيف تدفعهم إنسانيتهم للاستمرار رغم إدراكهم أن كلّ مَهمّة قد تكون الأخيرة في حياتهم - بل صنعت لاحقا وثائقيا قصيرا (4) عن المصور إبراهيم العطلة الذي رافق رجال الدفاع المدني ليكون جزءا من هذه الحكاية الإنسانية؛ فكان هذا الوثائقي كما كتب في التعريف على اليوتيوب: «تحيّة لرجل خاطر بحياته ليظهر قسوة الواقع كما هو». في نهايته يبكي إبراهيم الذي لم يتحمل ما شاهده من ألم؛ لأنه - كما يقول في الفيلم - تخّيل أن القصف يستهدف والدته، وأن الولد الذي حمله في سيارة الإسعاف بعد أن أنقذه رجال الدفاع المدني هو ابنه، فإبراهيم خلال التصوير لم يكتفِ بدوره مصوّرا، بل شارك في عمليات الإنقاذ. وهكذا، فإن الفيلم لا يدور حول ما يواجه إبراهيم فقط، بل يُظهر المشاعر التي تسيطر عليه: خوفه وقلقه ولحظات ضعفه وإنسانيته التي تدفعه هو الآخر للاستمرار في نقل معاناة بلده.

## للحرب حكاية أخرى

من المبرر أن يتعامل الصحفي مع قصص الناس ضمن إيقاع خبري سريع، وأن يُهمل أدوات السرد الوثائقي ورواية القصص من زاوية أخرى، وتوزيع اللحظات بصريا ودراميا؛ لأن المهمّ في عمله هو حكاية الحرب نفسها، لكن هناك دوما حكاية أخرى للحرب، وهنا

لا يسعى الوثائقي فقط للإجابة على السؤال «لماذا حدث ذلك؟»، بل مهمّته الغوص فيما وراء الحدث وتجاوُز ذلك إلى إبراز كيف عاشه الناس، ناقلا أحاسيسهم ومشاعرهم وخوفهم وفرحهم وقلقهم (تصوير: حاتم خالد - رويترز)

> **الفيلم الوثائقي يتطلب من صانعه أمورا لا تقتصر على ضرورة وعيه العميق بأن يفكر بعين الصحفي الباحث عن الدقة والمعلومة، وأن يرى بعين المخرج ما لا يراه أحد، وأن يحفّر عميقا وراء الحدث، بل يتطلب صبرا ونفسا أطول في التعامل مع الصور وكيفية إعادة تجميعها ضمن إيقاع بصري وعاطفي للحدث من خلال أبطال قصته.**

تظهر قيمة الوثائقي..
والفيلم الوثائقي يتطلب من صانعه أمورا لا تقتصر على ضرورة وعيه العميق بأن يفكر بعين الصحفي الباحث عن الدقة والمعلومة، وأن يرى بعين المخرج ما لا يراه أحد، وأن يحفّر عميقا وراء الحدث، بل يتطلب - كذلك - صبرا ونفسا أطول في التعامل مع الصور وكيفية إعادة تجميعها ضمن إيقاع بصري وعاطفي للحدث من خلال أبطال قصته. وليس مطلوبا منه أن يبحث عن الأرقام والإحصائيات حتى لا يقع في فخّ التقرير الصحفي، بل إن الإنسان هو همّه الأوّل، وهذا ما يفسّر لماذا تحتاج غرف الأخبار اليوم إلى صُنّاع وثائقيات ينبشون في التفاصيل المخفية بنفس القدر الذي تحتاج فيه إلى صحفيين ومراسلين ميدانيين.

يخبرني صديق من غزة أن من أوجُه المعاناة التي يعيشها الكثير من النازحين في الخيام، هي عدم قدرتهم على إسناد ظهورهم على قماش الخيمة. مشكلة قد تبدو بسيطة للكثيرين أمام هول المأساة الكبرى، لكنها ليست بالسهلة لرجل عجوز أو امرأة حامل أو شاب مريض، وهذه حكاية لن تسمعها في الأخبار، وإن ذُكرت فستمر سريعا في تقرير صحفي عن معاناة النزوح. لكنها في الفيلم ستعيد الاعتبار للإنسان بصفته مركزا للحكاية نعيش معه أدق تفاصيل معاناته.

الأخبار والتقارير الإخبارية تتلاشى بسرعة؛ ففي كل يوم تحدث مجزرة جديدة تزيح عن الشاشة مجزرة الأمس، لكن الفيلم الوثائقي القصير يعيد لتفاصيل المجازر حقها في الذاكرة، وحقها في أن يظل ضحاياها شهودا على أكبر جرائم الإبادة في العصر الحديث.

الأفلام يمكن أن تحوّل الحدث إلى شهادة إنسانية متكاملة لا تنقل الألم فقط بل طريقة مقاومته، ولا تكتفي بتوثيق ما حصل مع الضحايا، بل تقدّمهم بشرا من لحم ودم تستحق حكايتهم أن تُروى.

في عدد من الأفلام التي خرجت من غزة خلال العامين الماضيين، برزت قدرة الوثائقي القصير على تقديم رواية تواجه بروباغندا الاحتلال وتفكّك روايته المضلِّلة وتقدم سردية توثيقية مضادة بعدسة صُناع أفلام عاشوا هم أيضا الحرب وانعكس ثقلها عليهم، فمثّلت هذه الحرب اختبارا قاسيا لقدرتهم على الاستمرار في التوثيق وسْط الدمار والمعاناة وفي ظل الافتقار إلى الإمكانات الإنتاجية.

وإسرائيل لم تستهدف الصحفيين فقط، بل طال الاستهداف صانعي الأفلام الوثائقية في محاولة لمنع تشكيل الصورة وبنائها على نحو يخدم الرواية الفلسطينية الكاملة، وللحدّ من انتشارها أيضا، لكن نجح بعضهم من خلال أفلامهم في زيادة موجات التضامن الإنساني مع غزة حول العالم، وشاهدنا كيف غزت العديد من هذه الأفلام العديد من المهرجانات السينمائية.

## قصة نور طبيل

ضمن محاولة صُناع الأفلام في غزة توثيقَ تفاصيل حرب الإبادة الجماعية، أريد أن أحكي تجربة شخصية، بدأت منذ الأيام الأولى للحرب؛ فعلى مدار عامين عملنا على إنتاج قصص قصيرة لا تتجاوز دقائق معدودة، نسلط فيها الضوء على حكايات الناس، ولا نسعى فيها فقط لتتبع المعاناة، بل للتنقيب وراء الصورة، وكانت اللمسات الفنية الوثائقية حاضرة - كما هي اللحظات الإنسانية - في التصوير وفي المونتاج وفي الإخراج، وكذلك في زاوية التناول التي ابتعدت قدر الإمكان عن الحبكة التقليدية للتقارير الإخبارية.

في قصة الطفلة نور طبيل (5) ذات الأعوام التسعة التي كانت بمثابة العيون والآذان لوالديها الأصمَّين، ومنقذتهما عند اقتراب صوت الخطر، لم يكن اللافت دورها فقط في إرشادهما إلى الأمان، بل أيضا ما قالته خلال اللقاء: إنها كانت تخفي خوفها أثناء القصف لتطمئنهما وتساعدهما في العثور على مكان آمن. حضور نور أمام الكاميرا كان مؤثرا، وقدرتها على التعبير عن مشاعرها رغم صغر سنها لافتة واستثنائية.

هذه القصة التي عرضت وقدمت العالم الذي تعيش فيه نور، فتح الباب أمام تناولها في فيلم وثائقي أطول، يحكي عن نور الطفلة التي كبرت قبل أوانها بصفتها بطلة الحكاية.

الكاميرا في الوثائقي القصير لا تكتفي بنقل مشاهد القصف أو النزوح، بل تحاول تسليط الضوء على هذه التجربة الصعبة نفسها (تصوير: إبراهيم حجاج - رويترز).

## أرشيف الذاكرة ووثيقة إدانة

الأفلام الوثائقية القصيرة يُمكن أن تتحول أيضا إلى وثائق إثبات وإدانة للاحتلال الذي كان يمارس القتل يوميا أمام أنظار العالم كله، وما يُميزها عن الخبر أو التقرير أن الشهادات فيها أعمق وأقوى ويمكن أن تؤسس لأرشيف حقوقي بصري يسهم أيضا في بناء الذاكرة الجمعية الفلسطينية. وهي ليست مجرد مقاطع صغيرة تُصاغ بإيقاع سريع تُشبه تلك المقاطع التي تُنتج لصالح المنصات الرقمية ويُختزل فيها المحتوى بكتابته على الشاشة وموسيقى مشوقة ورسائل فورية لتصبح أشبه بالوجبات الإعلامية السريعة التي يبتلعها الجمهور في دقائق وقد ينساها بعد ساعات، وإن كان ذلك لا يلغي أهمية هذه المقاطع؛ لما تمتاز به من تكثيف للمحتوى وإبقاء القضية حاضرة على الدوام، إلا أن الطابع العام فيها سيطغى لاحقا على الطابع الإنساني الخاص، بفعل كثرة المواد وتشابهها، فلا يبقى في الذاكرة سوى بعض الحكايات التي حظيت بترويج أكبر من غيرها.

في المقابل، فإن الفيلم الوثائقي القصير يقاوم هذا النمط السريع فلا يلهث وراء المشاهدات والإعجابات،

> **أخشى من أن يفقد المُشاهد حسّه الإنساني تجاه ما يجري؛ فالصور المتكررة قد تُولِّد نوعا من اللامبالاة، والوجع القادم عبر الشاشات قد يصير مألوفا، لكن يأتي الفيلم الوثائقي القصير ليحاول ترتيب العلاقة بين الصورة والمتلقي وليخلق تواصلا بينه وبين أبطال الفيلم.**

بـل يمنـح المتلقـي وقتـا للتأمـل، ويجعلـه شـريكا في التفكيـر لا مجـرد متفـرج على المأسـاة، وهـو صالـح للعـرض في كل زمـان ومـكان يمكـن أن يسـتعيد الحضـور أمـام سـطوة السـرعة، مـع الأخـذ بعيـن الاعتبـار أن مـن وظائـف الفيلـم الوثائقـي هـو أن يفسـر لا أن يثيـر التعاطـف فقـط، مـع عـدم إغفـال الكرامـة الإنسـانية للضحيـة بالانجـرار وراء اسـتثمار المعانـاة بصريـا دون سـياق يوضـح الأسـباب ومـن يتحمـل مسـؤولية هـذا الألـم الـذي نـراه في الصـورة.

## امتـداد الخبـر في بعـده الإنسـاني

تجربـة الحـرب على غـزة كشـفت أن الدمـج بيـن الوثائقـي والتغطيـة الإخباريـة ليـس ترفـا بـل ضـرورة مهنيـة. وهـو ليـس منافسـا للتغطيـة الإخباريـة بـل مكمـل لهـا.

الخبـر يُبقـي الحـدث حاضـرا وحيـا، أمـا الوثائقـي فيمنحـه حيـاة أطـول ومعنـى أعمـق، ولعـل وجـود فريـق وثائقـي متعـاون مـع غـرف الأخبـار يمكـن أن يخلـق توازنـا بيـن اللحظـة والذاكـرة التـي يجـب أن تُحفـظ، فوظيفـة الإعلام لا تقتصـر على الإخبار، بـل أيضـا على الفهـم والتوثيـق، وبمعنـى آخـر، فـإن الفيلـم الوثائقـي القصيـر هـو الامتـداد الطبيعـي للخبـر في بعـده الإنسـاني.

وفي زمـن تتسـارع فيـه الأخبـار وتبهت التفاصيـل، يبقـى الوثائقـي القصيـر هـو الفـن الـذي يعيـد للصحافـة التلفزيونيـة معناهـا الأول: أن تكـون شـهادة على الإنسـان، لا على الحـدث فقـط، بـل وعلى الحقيقـة حتـى لا تتحـول إلـى مجـرد مشـهد عابـر.

الأفلام يمكن أن تحوّل الحدث إلى شهادة إنسانية متكاملة لا تنقل الألم فقط بل طريقة مقاومته، ولا تكتفي بتوثيق ما حصل مع الضحايا، بل تقدّمهم بشرا من لحم ودم تستحق حكايتهم أن تُروى (تصوير: حاتم خالد - رويترز)

# المراجع


1) https://www.youtube.com/playlist?list=PLDE4oY4mYFYHx8dWLMzYCTC3v9C7wK-ON

2) https://www.youtube.com/watch?v=0DRoEsBG-0M&list=PLDE4oY4mYFYEC5JgUvBvs0pKeScmmox_3&index=2

3) https://www.youtube.com/watch?v=QV8YwAN5wxM44)

4) https://www.youtube.com/watch?v=QV8YwAN5wxM

5) https://www.youtube.com/watch?v=HCJjU0nZ-M4

# من الحارات إلى «القارات».. كيف أصبحت صحفيا في الجزيرة؟

عمر الحاج

**في عام 2011، ظهر عمر الحاج على شاشة الجزيرة باسم أوس العربي، متحدثا بلسان الثائر الرافض لنظام بشار الأسد، قبل أن يصبح لاحقا صحفيا في القناة، مطوقا بالمعايير المهنية والأخلاقية. في هذا المقال، يروي رحلته من النشاط السياسي إلى العمل الصحفي، والدروس التي استخلصها من هذه التجربة.**

في منتصف عام 2011، وبعد أن بُح صوتي في قيادة المظاهرات الكبرى في ميادين وساحات دير الزور، وكتابة الهتافات الثورية، اقتحم الجيش السوري المحافظة للمرة الأولى برتل كان قوام طلائعه 90 دبابة ومدرعة وعدداً من فرق المشاة من بينها فرق للوحدات الخاصة والحرس الجمهوري.

في تلك اللحظة أدركت - بيقين لا شك فيه - أن الخروج في أي مظاهرة يعني الموت، وأنه لا مكان للرومانسية أو للتفاؤل الساذج بالوقوف أعزَل أمام الدبابات لاستدرار عاطفة قائديها. فهذه ليست ساحة تيان آن من، ولن يكون المصير كمصير رجل الدبابة الصيني الذي شاهده العالم كله وكان ملهما لنقل ما يجري في سوريا ساعتئذ.

كانت أغلب المدن السورية الثائرة - آنذاك - قد اقتحمها الجيش وتطور الأمر فيها إلى الصدام المسلح منذ الأيام الأولى، إذ تساوى عند الكثير من أولئك الموت والحياة وهان عليهم الظهور أو الحديث على وسائل الإعلام والخروج بالصوت والصورة، أما عندنا في دير الزور فقد كان الأمر عسيرا حتى وإن سبق للبعض من أبنائها المغتربين أن ظهروا عبر برامج الاتصال من خارج البلاد متحدثين عن الحال هناك.

دار النقاش سريعاً بيننا بأن سبب الضعف في نقل ما جرى عندنا في المدينة هو عدم وجود متحدث بالعربية والإنجليزية يتجنب البكاء والشكوى مثلما كان يطلع من بعض المحافظات، باستخدام هاتف ورقم واحد غير مسجل يستخدمه شخص واحد حتى لا يتعرض الجميع إلى التهلكة.

ولأن الناس ربما رؤوا في أني أمتلك هذه الصفات، استقر الرأي عليَّ، وأيضا لأني قد هجرت بيت والدي رحمه الله منذ اندلاع الحراك كما كنت مطلوباً كمئات آلاف السوريين للأفرع الأمنية، ولأنني أيقنت أن لا سبيل لمواصلة تعليمي الجامعي في مثل تلك الظروف.

كانت أول مداخلة لي أثناء مداهمة الجيش وتمشيطه للأحياء واحدًا تلو الآخر. في ذلك الوقت كنت في منزل خالي، وكانت المداخلة مع الجزيرة الإنجليزية. انتهت المكالمة في اللحظة نفسها التي ارتفعت فيها الأصوات وعمّ الاضطراب في المبنى؛ فقد بدأ الجيش بتفتيش الحي الذي يقع فيه بيت جدي وأخوالي. لكن العناية الإلهية صرفتهم عن بيتنا، من غير حولٍ منا ولا قوة.

## ولادة أوس العربي

كنت أشاهد مداخلة لناشط صار من المشاهير في إحدى القنوات العربية، فبكى قبل أن تقاطعه المذيعة بطريقة تشبه تعنيف الأم لابنها عند إفراطه بالبكاء، مطالبة إياه بالكف عن النحيب لأنها لم تفهم ما يقول. سرعان ما بدأت تسأله عن تفاصيل لم يألفها هو وناشطو الثورة، إذ شعرت بمبالغة في روايته. منذ ذلك اليوم عزمت ألا أقول إلا ما رأيت بعيني، وألا ألتفت للأخبار المتداولة في المدينة حتى أتحقق منها بنفسي، سواء كانت تفريقًا بالقوة أم إطلاقًا للنار. وقد ظهرت فيما بعد في الكثير من وسائل الإعلام.
لكن مغالبة المشاعر لم تكن أمرا يسيرا. ما زلت أذكر ظهوري على قناة الجزيرة العربية ضمن نشرة هذا المساء حين تحدثت عن مجزرة بعثة المراقبين الدوليين. وأمام عيني قتل الصديق والأخ حذيفة غدير رحمه الله في قلب مدينة دير الزور وأمام لجنة المراقبين.

لم أدرك أثناء المداخلة أنني انسقت إلى تفاصيل كثيرة غلبت فيها المشاعر، في حين كان الأجدر أن أكتفي بسرد خبر الجريمة التي ارتكبها الأسد ونظامه.

لأسباب أمنية لا تخفى على من يعيش تجربة المواطن الصحفي في العالم العربي كان لا بد من اختيار اسم لا يمت للبيئة ولا لأسماء العوائل المشهورة، خاصة وأن المدينة تركيبتها عشائرية، وزج أي اسم بغير احتياط لغرض التمويه قد يعرض حياة الآخرين للخطر. كان لصديقي مثنى ابن شقيقة اسمه أوس، وكان الأمين العام للجامعة العربية آنذاك هو نبيل العربي. مزجنا بين الاسمين، فصرت أوس العربي.

> **مغالبة المشاعر لم تكن أمرا يسيرا. ما زلت أذكر ظهوري على قناة الجزيرة العربية ضمن نشرة هذا المساء حين تحدثت عن مجزرة بعثة المراقبين الدوليين. وأمام عيني قتل الصديق والأخ حذيفة غدير رحمه الله في قلب مدينة دير الزور وأمام لجنة المراقبين.**

لم يقتصر التنكر والتخفي على الاسم فقط، بل رحنا نبتدع طرقاً أخرى من شأنها أن تخفي هويتنا. تغيير الصوت أثناء الحديث على

الهاتف كان خيارنا الأول وإن بدا الصوت مضحكا في بعض الأحيان. كانت حينها باكورة ثورة أجهزة الهاتف الصينية التي كانت تغير صوت المتحدث لكن الكثير من القنوات كانت تشتكي من ذلك وتطالبنا بوقف استخدامها.

## عمار الحاج

منذ أواخر سنة 2011 أصبحت معتمدا لدى شبكة الجزيرة بصفتي شاهد عيان ثم اختفت تلك الصفة. لم أتلق أي تدريب – حينها - لكنني كنت قد بدأت بإرسال الصور والأخبار المكتوبة والظهور في المداخلات الصوتية بشكل منتظم، واستمررت بهذه الوتيرة حتى منتصف عام 2012 حين استدعيت للمرة الأولى إلى تركيا. قابلني الاستاذ تيسير علوني الذي كان من تواصل معي باسم الجزيرة منذ البداية ثم أشرف على تغطية الثورة حقبة من الزمن. زودني بعدها بالمعدات وأجرى لي تدريبا سريعا، وقال لي حان وقت الظهور على الشاشة: الآن وعليك اختيار اسم جديد.

حين عدت إلى سوريا، كان الهاجس الأكبر يطاردني: منزلنا يقع قبالة فرع أمن الدولة، وعيون المخابرات لا يعجزها أن تعرف من أكون أو أين أسكن. كنت أخشى أن يُختطف والدي وإخوتي الذين سبق أن اعتقلوا جميعاً إبّان الثورة، لإجباري على تسليم نفسي، كما حدث مع كثير من الناشطين.

اضطرت عائلتي إلى الرحيل نحو دمشق، التي كانت آنذاك تمتلئ بالملايين من المهجّرين من مختلف المحافظات. هناك غيّرت اسمي إلى عمار الحاج، واتخذت كل ما يمكن من احتياطات، من إطالة الشعر أحياناً إلى قصّه حيناً آخر، ومن تلك اللحظة بدأت حكايتي رسميّاً مع الجزيرة.

> **الخوف لم يعد مصدره النظام وأجهزته الأمنية وحدها، بل أيضا من بعض من لا يرضيهم أداؤك أو أداء مؤسستك ممن يدعون الانتساب إلى الثورة. وهذا بدوره كان يدفعك إلى مزيد من الالتزام بالحياد، حتى في منشوراتك الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي التي لم تكن قد شهدت بعد ما نشهده اليوم من انفلات وتحول غريب.**

## من النشاط إلى الاحتراف

كان الفارق شاسعا بين ظهورنا بصفتنا ناشطين وشهود عيان على الشاشات، وظهور المندوب أو المراسل الرسمي للقناة المسؤول عن كلمة رسمية أو عن توصيف طرف في بيئات الحروب أو الثورات المسلحة. لقد كان النشطاء - وإن كانوا محقين من وجهة النظر الثورية على الأقل - ينعتون عناصر النظام بالمجرمين والقتلة ونعوت أخرى يتعالى المقام عن ذكرها، لكن هذا ليس

لم يقتصر التنكر والتخفي على الاسم فقط، بل رحنا نبتدع طرقاً أخرى من شأنها أن تخفي هويتنا. تغيير الصوت أثناء الحديث على الهاتف كان خيارنا الأول وإن بدا الصوت مضحكا في بعض الأحيان (شترستوك).

عمل الصحفي المحكوم بقواعد مهنية وأخلاقية صارمة لكن لا يعني أيضا الانحياز إلى القتلة.

لم يعد بوسعي أيضا قبول أي صورة من الكتائب المنتشرة في المدينة قبل أن أسأل وأتحقق من تاريخها ومكانها وسياقها. كنت أفعل ذلك حتى قبل انضمامي إلى الجزيرة، لكن الحرص الآن أصبح مضاعفا.

**لأسباب أمنية لا تخفى على من يعيش تجربة المواطن الصحفي في العالم العربي كان لا بد من اختيار اسم لا يمت للبيئة ولا لأسماء العوائل المشهورة، خاصة وأن المدينة تركيبتها عشائرية، وزج أي اسم بغير احتياط لغرض التمويه قد يعرض حياة الآخرين للخطر.**

بعد انضمامي إلى الجزيرة، لم أعد ابن البيئة التي أعيش فيها فحسب، بل العارف بفصائلها وكتائبها ومدى الأخطار المحيطة بها، والمطلع على مناطق انتشار النظام والمناطق المحظورة. فقد أصبحت مطالبا بالتوجه إلى أماكن لم تطأها قدمي من قبل، حتى في أيام السلم. ولأن عملي صار يفرض علي التعامل مع أشخاص، وإن كانوا من الثوار، كان لزاما أن أتوخى أقصى درجات الحذر، فأستفسر عنهم وعن تبعيتهم ومواقع تمركزهم، ثم أتحقق من ذلك عبر من أثق بهم من أبناء مناطقهم.

الخوف في تلك المرحلة تضاعف، لم يعد مصدره النظام وأجهزته الأمنية وحدها، بل أيضا من بعض من لا يرضيهم أداؤك أو أداء مؤسستك ممن يدعون الانتساب إلى الثورة.

وهذا بدوره كان يدفعك إلى مزيد من الالتزام بالحياد، حتى في منشوراتك الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي التي لم تكن قد شهدت بعد ما نشهده اليوم من انفلات وتحول غريب.

ومع كل هذا الحرص، لم أسلم من

لا سبيل للمراسل للاستطراد في التحليل و تقديم النتائج و العظات، فهذا ليس من شأنه - وإن كان هناك مجال للتحليل - فلا بد أن يبدأ أولا بعرض الوقائع (خاص).

الخطر، فقد تعرضت للاختطاف من قبل تنظيم الدولة الإسلامية رغم التزامي بكل ما أوصيت به آنفا. كانت الحادثة محض صدفة، ولمن يرغب في معرفة تفاصيلها، فليعد إلى روايتي «أسير الوالي: مذكرات مراسل الجزيرة في سجون تنظيم الدولة».

لقد أيقنت حين بدأت العمل مع

**كانت المظاهرات آنذاك في حي الفاتح في إسطنبول، أو أمام مبنى الأمنيات القريب، تطالب برحيل العسكر. فاجأت زميلي المذيع حين قلت: «وعلى الرغم من ذلك، أرى العشرات وربما المئات من الأتراك قد التفوا حول الجيش وأخذوا يحيّونه ويؤيدون الانقلاب». استدرك زميلي ظانا أنني أخطأت، لكنني أكدت له ما رأيته، وأوضحت بالصورة ما جرى.**

الجزيرة صواب التزامي بالاحتياط في نقل الأخبار، فعلى عكس ديدن كثير من الناشطين وشهود العيان الذين يغفلون دون سوء نية – غالباً - عن هذه الأمور: لا خبر إلا و يجب نسبه للمصدر، لا داعي للإسهاب في المداخلة إلا للتذكير بالأحداث الجارية، ولا سبيل للمراسل للاستطراد في التحليل و تقديم النتائج و العظات، فهذا ليس من شأنه - وإن كان هناك مجال للتحليل - فلا بد أن يبدأ أولا بعرض الوقائع، ثم الإشارة - مثلا - إلى أنه إذا آلت الأمور إلى كذا، فسيكون السياق على النحو التالي.

تعلمت أيضا أن المراسل ومظهره لا يجب أن يسبق الخبر، لا ثياب ملفتة ولا حلي و لا حتى قصات شعر غريبة تدفع المشاهد للتأمل في أشياء أخرى، ونسيان ما الذي كان يتحدث عنه، والأهم أن يكون المراسل على مسافة واحدة من كل الأطراف لأن حياديته هي طوق نجاته.

تعلمت مهارات أخرى، خصوصا في التصوير، فذلك الشغف غير المحدود لدى الناشطين باستخدام لقطات التقريب والإبعاد (زووم إن وزووم آوت) يختفي تماما في عالم الصحافة المهنية، لأنها أداة فنية تُستخدم وفق شروط محددة، لا بشكل عشوائي كما كان يفعل كثير من الناشطين. فكل صورة لها وظيفة محددة في الغالب، وكذلك الجمل الافتتاحية والختامية، ولقطات البداية والنهاية، والكتابة للصورة لا عنها. كل ذلك كان غائبا عن أذهاننا خلال فترة عملنا كناشطين.

## ما لا ينسى

أستطيع أن أعدد ما لا حصر له من الدروس والعبر و الأخطاء والتجارب التي مررت بها خلال ثلاثة عشر عاما من عملي مع الجزيرة، ويمكن أن أسوق ما لا يحصى من الأمثلة عن ضرورة الالتزام بالحياد في مختلف البيئات في نقل الخبر لكن إن كان لابد من ذكر مثال واحد، فلعلي أستحضر تغطية ليلة محاولة الانقلاب في تركيا عام 2016.
يومها كنت أقف مع زميلي المصور خيري في ساحة تقسيم، حين وصل مئات الجنود وعدد من العربات إلى وسط الساحة. كانت المظاهرات آنذاك في حي الفاتح في إسطنبول، أو أمام مبنى الأمنيات القريب، تطالب برحيل العسكر. كنت أتحدث عن ذلك، لكنني في الوقت نفسه، فاجأت زميلي المذيع حين قلت: «وعلى الرغم من ذلك، أرى العشرات وربما المئات من الأتراك قد التفوا حول الجيش وأخذوا يحيّونه ويؤيدون الانقلاب». استدرك زميلي ظانا أنني أخطأت، لكنني أكدت له ما رأيته، وأوضحت بالصورة ما جرى.
لقد تعرضت للشتم، ساعتها، من بعض المتضامنين مع الرئيس اردوغان ومحبيه، لكن كان لا بد من الإشارة إلى ما رأيته، أما إنكاره لن يرفع من قيمتي كصحفي وإنسان كما لن يحط منها أيضا.

الأمر ذاته تكرر في أوكرانيا، حين كنا نغطي القصف الروسي الذي استهدف بعض المنازل والمدارس. كانت وسائل الإعلام الأوكرانية تتحدث عن عشرات القتلى، بينما لم يكن يُنتشل سوى عدد محدود من الجثث. كما كانت تشير إلى أن الأهداف جامعات ومنشآت مدنية، في حين كنا نشاهد استخراج أسلحة وجثث لعناصر من الجيش. ومع ذلك، فإن وجودنا في أوكرانيا لم يمنعنا من نقل الصورة كما هي، دون تبني أي رواية، سوى ما تنقله الكاميرا إلى المشاهد.

هذه بعض الدروس والمسيرة مستمرة.

في عالم الصحافة المهنية كل صورة لها وظيفة محددة، وكذلك الجمل الافتتاحية والختامية، ولقطات البداية والنهاية، والكتابة للصورة لا عنها. كل ذلك كان غائبا عن أذهاننا خلال فترة عملنا كناشطين (شترستوك).

# كيف يحمينا الشك من التضليل؟

إسلام رشاد

**هل تكفي الأدوات التقنية وحدها لإنقاذ الصحفيين من موجات التضليل التي ازدادت تعقيدا وخطورة في عصر الذكاء الاصطناعي؟ وكيف يمكن أن يتحول الشك المهني والحسّ النقدي إلى آليات أساسية في عملية التحقق من الأخبار؟ وما هي التحديات الجديدة التي تفرضها المنصات الرقمية على مدققي المعلومات في زمن السرعة وتدفق المعلومات؟**

عرفت غرف الأخبار خلال السنوات الثلاث الاخيرة - وبالتحديد منذ بداية الحرب الأوكرانية الروسية - عهدا جديدا من التضليل بلغ ذروته خلال حرب الإبادة الإسرائيلية على غزة التي شهدت موجات مركبة من التضليل استخدم فيها حتى الذكاء الاصطناعي، والحملات الإعلامية الموجهة.

شهدت تلك الفترة أيضا الحرب في السودان، والحرب الباكستانية الهندية، والحرب الإيرانية الإسرائيلية، ومعركة «ردع العدوان» في سوريا، وما أعقبها من حملات تضليل.

فرضت هذه الأحداث تحديا هائلا أمام غرف الأخبار، للتعامل مع التدفق الإخباري المستمر بأمان في ظل التضليل المتعمد وغير المتعمد الذي تمتلئ به منصات التواصل الاجتماعي. ولذلك، فإن التحقق من الأخبار والفيديوهات، كان صمام الأمان والطريقة الوحيدة لضمان مصداقية التغطية، ومحاولة تفادي الفخاخ المنصوبة في كل مقطع وصورة.

## التحدي في كل لحظة

في آب/أغسطس 2025، وقعت وسائل الإعلام العربية والإعلامية ضحية لعملية تضليل من السودان، وذلك بعد أخبار عن انهيار أرضي في قرية ترسين وسط دارفور، أسفر عن مقتل أفراد قرية بأكملها.

واعتمد الخبر على بيان من جيش تحرير السودان، وحظي باهتمام واسع بسبب حجم الكارثة، وهو ما جعل وسائل الإعلام تبادر للتغطية، لكن منذ اللحظة الأولى للخبر، ومحاولة غرف الأخبار الوصول لمحتوى حول الخبر، بدأنا في وكالة سند (1) عملية التحقق المعتادة على الأخبار المماثلة.

طريقة كتابة الخبر كانت باعثة على الشك؛ بسبب صياغاته المبالغة، وألفاظ مثل: «موت جميع سكان القرية»، وكذلك بسبب سرعة إحصاء أعداد القتلى رغم أنها منطقة نائية تندر فيها معدات الإنقاذ، ولذلك بدأنا بالخطوات الأساسية للتحقق، في مقدمتها محاولة الوصول لمصدر إضافي يؤكد المعلومة نفسها.

ورغم البحث المكثف، لم يظهر أي محتوى للمستخدمين حول الحدث، رغم حجم الكارثة، وكذلك لم نعثر على دليل يدعم الشكوك الأولية، التي استمرت وتزايدت.

قمنا بعدها بمحاولة الإجابة على الأسئلة التي طرحناها في البداية ضمنها السؤال عن سرعة إحصاء العدد، وعن الطبيعة الجغرافية للمكان، ولجأنا لصور الأقمار الصناعية، التي أظهرت أن مساحة القرية لا تتجاوز 2,7 كيلومتر مربع تقريبا، وتتكون من عدة بيوت فقط، ما عزز الشكوك الأولية أن القرية لا يمكن أن يسكنها هذا العدد أصلا، وأن الرقم مبالغ فيه. وقد تأكد ذلك بالفعل في الأيام التالية، بشهادات بعض سكان المنطقة التي نشرت عبر فيسبوك، وبتقارير الحكومة الرسمية التي أفادت أن العدد لم يصل إلى حجم الشائعات التي روجت مع إقرارها بوقوع الانهيار.

لم يستغرق الأمر دقائق للتأكد من أن الخبر ليس صحيحا، وتأكيد الشكوك الأولية التي لها الفضل في طرح الأسئلة الناقدة للرواية الأولية.

تعد مهارة طرح الأسئلة أحد أبرز المهارات اللازمة لمدققي الحقائق ومحققي المصادر المفتوحة، وهي مهارة تعتمد على الحس الصحفي وعلى الخبرة في نطاق العمل بشكل أساسي وفي التحقق نفسه، لكن قبل السؤال، فإن الشك، هو المرحلة الأولى التي يعتمد عليها التحقق بأكمله.

**تعد مهارة طرح الأسئلة أحد أبرز المهارات اللازمة لمدققي الحقائق ومحققي المصادر المفتوحة، وهي مهارة تعتمد على الحس الصحفي وعلى الخبرة في نطاق العمل بشكل أساسي وفي التحقق نفسه، لكن قبل السؤال، فإن الشك، هو المرحلة الأولى التي يعتمد عليها التحقق بأكمله.**

## لماذا يجب أن نقدم الشك؟

قد تكون النصيحة بضرورة الشك في كل المحتوى المنشور على المنصات أقرب إلى نصيحة بديهية، ينطق بها مدرب تدقيق الحقائق في بداية كل دورة تدريبية دون أن يكون ذلك ممكنا، فلا يمكن للصحفي أن يستخدم أدوات التحقق للتأكد من كل خبر أو مقطع.

لكن في السنوات الأخيرة - ومع دخول تقنيات حديثة إلى مجال التضليل، والاعتماد المكثف على محتوى المستخدمين - بات ضروريا التعامل مع كل مقطع بشكل

منعـزل، وتجنـب فـخ الثقـة الوهمـي الـذي قـد ينتـاب الصحفـي مـن تكـرار العمـل على نطـاق معيـن أو حـوادث متشـابهة؛ ذلـك أن الصحفـي يقـع أحيانـا فيمـا يعـرف بالانحيـاز التأكيدي، حيـث تكـون رغبتـه في التصديـق والتعامـل مـع المادة لمواكبـة الحـدث والنشـر السـريع، أقـوى مـن الشـك الداخلـي الـذي يجـب تقديمـه.

كمـا أن المقاطـع والأخبـار المضللـة لـم تعـد مقتصـرة على صفحـات محـدودة أو حسـابات مشـبوهة، لكنهـا تعـرف طريقهـا لتصـدر التفاعـل عبـر المنصـات، وقـد كشـفت العديـد مـن الدراسـات، إحداهـا أجريـت على نحـو 126 ألـف منشـور، أن الأخبـار الزائفـة تنتشـر أسـرع مـن الأخبـار الصحيحـة عبـر منصـة إكـس (2).

كمـا يفيد مركـز تـاو للصحافـة الرقمية التابـع لجامعـة كولومبيـا في تحقيـق (3) نشـر مـع منظمـة بروبابليـكا، بعـد ثلاثـة أشـهر مـن انـدلاع الحـرب على غـزة، أن حسـابات موثقـة على منصة إكـس كانـت تـروج معلومـات مضللـة، شـهدت نمـوًا كبيـرًا في جمهورهـا خلال الشـهر الأول مـن الحـرب، ولـم تكـن ملاحظـات المجتمـع كافيـة لملاحقـة الأكاذيـب المنتشـرة.

كذلـك فـإن اسـتخدام التضليـل كأداة في الحـروب يفـرض تحديـا مختلفـا، لا يمكـن تفسـيره فقـط بانحيـاز الصحفييـن التقليـدي إلـى السـلطة الـذي يجعلهـم يتعاملـون مـع مـا تنشـره الجهـات الرسـمية بوصفـه مصـدرا موثوقـا. فجـزء كبيـر مـن المشـكلة يرتبـط أيضـا ببيئـة الإعلام الرقمـي نفسـها، حيـث تدفـع سـرعة النشـر، وضغـط المنافسـة على المشـاهدات والوصـول، العديـد مـن المؤسسـات الإعلاميـة إلـى إعـادة تـداول المـواد مـن دون تحقـق كاف، مـا يجعلهـا طرفـا غيـر مباشـر في نشـر الأخبـار المضللـة بـدلا مـن كشـفها.

تشـكل الحـرب الإسـرائيلية مثـالا بـارزا على توظيـف التضليـل كأداة مـن السـلطات الرسـمية، وعلى انحيـاز عـدد مـن المؤسسـات الإعلاميـة لتلـك الروايـة دون تحقـق، رغـم كونهـا صـادرة عـن سـلطة احـتلال وفي سـياق حـرب، حيـث تتوافـر كل الدوافـع المهنيـة والأخلاقيـة لافتـراض الشـك الصحفـي المبدئـي. وكانـت صحيفـة إسـرائيلية قد نشـرت تحقيقـا في بدايـة أكتوبـر وثقـت فيـه كيـف أن المقاطـع ثلاثيـة البعـد (4) التـي ينشـرها الجيـش الإسـرائيلي التـي اسـتخدمها كثيـرا خلال الحـرب على غـزة، وأبرزهـا لإظهـار مراكـز قيـادة مزعومـة تحـت المستشـفيات في غـزة، كانـت في الأصـل مقاطـع مـن أحـد المتاجـر المعروفـة لهـذا النـوع مـن الفيديوهـات، كمـا تكـرر نفـس السـيناريو في أماكـن مختلفـة.

ووثقنـا في وكالـة سـند، عشـرات الحـالات التـي كانـت فيهـا الروايـة الإسـرائيلية الرسـمية مضللـة، مـن بينهـا كان نشـر مقطـع فيديـو لمواسـير نقـل ميـاه في إحـدى المـدارس، والادعـاء بأنهـا لنفـق تابـع للمقاومـة، وفيديـو لاسـتهداف 100 سـيارة تابعـة للمقاومـة في مـارس/آذار 2025، وقـد ثبـت زيفـه، حيـث لـم يسـتهدف هـذا العـدد، كمـا تضمـن الفيديـو مقاطـع لقصـف سـيارات هيئـات مدنيـة واضحـة.

> **الصحفي يقع أحيانا فيما يعرف بالانحياز التأكيدي، حيث تكون رغبته في التصديق والتعامل مع المادة لمواكبة الحدث والنشر السريع، أقوى من الشك الداخلي الذي يجب تقديمه.**

في مشـهد قصـف النفـق، كان منظـر المـكان ومسـار النفـق المزعـوم مثيـرا للشـك، حيـث لا يتوافـق المـكان مـع كونـه مستشـفى، كمـا لا تتبـع الأنفـاق هـذا الشـكل المنتظـم، وهـو مـا أثبتـه التحقـق عبـر تحديـد

الموقع الجغرافي الذي أظهر أن الصورة ملتقطة من مدرسة، وأن الظاهر هو خط لتصريف المياه.

في إحدى الحالات، نشر حساب مسؤول رسمي إسرائيلي، مقطعا لمشهد يظهر فيه محاولة تصوير مشهد إصابة بعض الأشخاص، مدعيا أنه يحتوي على فبركة الفلسطينيين لمشاهد القتل، وهي حملة إسرائيلية ممتدة تعتمد على المشاهد المضللة، بدأت منذ استشهاد محمد الدرة قبل أكثر من عشرين عاما.

في هذا المشهد، وقبل أي تحقق، كان مظهر البيوت والشوارع لا يتشابه مع الشكل المعتاد في غزة مثيرا للشك، كما لا يوجد أي آثار قصف أو دمار، وهي علامة مهمة للتحقق.

بالبحث تبين أن المقطع يعود لكواليس أحد الأفلام، التقط في مدينة صور اللبنانية، ونشر مخرج الفيلم الكواليس عبر انستجرام.

وفي نوفمبر/ تشرين الثاني 2023، نشرت حسابات إسرائيلية مشهدا يظهر ممرضة تدعي أنها من مستشفى الشفاء بغزة، وتطالب المواطنين بالخروج من المستشفى بسبب سيطرة حماس عليها ومنعها الأدوية عنهم.

وفي المشاهدة الأولية، ظهر صوت الانفجارات في الخارج متقطعا ولا ينسجم مع الصوت المعتاد، وهو ما أثار الشك في إمكانية فبركة الفيديو بالكامل.

ولعل الشك بشأن فبركة الفيديو هو بداية لمسار التحقق من تركيب الصوت نفسه، بدلا من مسار البحث عن مصدر الفيديو أو عن هوية الممرضة من مصادر في المستشفى، وقد قاد تحليل الصوت بالأدوات المتخصصة، إلى اكتشاف أنه مسجل من أماكن مختلفة، ومركب مع الأصوات بالخلفية.

ووثق تقرير للمركز العربي لتطوير الإعلام الاجتماعي، كيف استخدمت إسرائيل التضليل (5) الممنهج أداة في مواجهة المجتمع الدولي وفي مواجهة الفلسطينيين أنفسهم، لمحاولة تسويق روايتها والتبرؤ من جرائمها.

ورصد التقرير محاولة إسرائيل استخدام التضليل عبر أدوات الذكاء الصناعي، وآلاف الحسابات الوهمية والبوتات، في محاولة لتجريد الفلسطينيين من إنسانيّتهم وتصويرهم على أنهم خطر دائم؛ لتسويغ العنف، وتشريع الحرب عبر خلق ذرائع «أخلاقية» زائفة، كما وظفت إسرائيل التضليل لتأجيج التحركات داخل المجتمع الفلسطيني والعربيّ، ومحاولة إثارة الرأي العام الداخلي.

> **جزء كبير من مشكلة التضليل في الحروب يرتبط ببيئة الإعلام الرقمي نفسها، حيث تدفع سرعة النشر، وضغط المنافسة على المشاهدات والوصول، العديد من المؤسسات الإعلامية إلى إعادة تداول المواد من دون تحقق كاف، ما يجعلها طرفا غير مباشر في نشر الأخبار المضللة بدلا من كشفها.**

## الشك كوسيلة

وفي محاولة لتفادي الوقوع في التضليل، فإن قدرة الصحفي على الشك، وحسه الناقد لما يتابعه، هو ما يساعده لتجنب الأخطاء، وكذلك لتوفير الوقت والجهد. ويتلازم الفضول مع الشك؛ حيث إن معرفة كل معلومة ممكنة عن الحدث أو الفيديو المرفق، قد تكون الطريقة الأسهل للتفكير في محاولة التحقق من أي مقطع.

كما يجب أن تعمل ملكة الشك في النظر إلى كل شيء بدءًا من الحدث نفسه والمكان والوقت واللغة المستخدمة حيث قد يتجلى التضليل في كلمة واحدة. ويُعد الناشر أو ما يعرف بالمصدر الأصلي في عمليات التحقق، أحد المؤشرات الأولى التي تستدعي الشك؛ إذ يعتمد الصحفي في تقييمه على طبيعة المصدر وموقعه وسياقه. فلا يُعقل - عادة- أن يكون صحفي مقيم في الهند هو المصدر الأصلي لمقطع صور في الولايات المتحدة.

كما ظهرت العديد من الحسابات خلال الحرب على غزة مهمتها جمع فيديوهات من الصحفيين داخل غزة، أو الناشطين ممن يوثقون المظاهرات الداعمة في الخارج، وإعادة نشرها على المنصات المختلفة، لكن تتبع الحساب يظهر أنه ينشر مقاطع من شمال وجنوب القطاع في اليوم نفسه، وهو ما لا يمكن حدوثه إلا نادرا.

وتقع وسائل الإعلام ضحية لتلك الصفحات بسبب نشرها لمئات المقاطع الصحيحة، رغم أن التحقق من كل مقطع لا يلزمه سوى الشك في المصدر، وبالتالي الوصول

للصحفي الناشر، وعندها يظهر أن المقطع قديم، ونشرته الحسابات لزيادة التفاعل.

كما يمكن لخبرة الصحفي في نطاق التغطية أن تمنحه هذا الحس النقدي تجاه كل مقطع، حيث يمكنه بسهولة تقييم قوة المصدر، ومعرفة ما إذا كان من المصادر المعروفة للنشر في هذا النطاق، والوصول إلى المصادر الإضافية التي قد توجد في المكان نفسه، مما يمكنه من البحث عنها لمحاولة العثور على زاوية إضافية للحدث، وهي إحدى القرائن الحاسمة في أي عملية تحقق.

> **الحرب الباكستانية الهندية الأخيرة التي شكلت تجربة مثيرة للصحفيين، بسبب الكم الهائل من المحتوى المضلل الذي أحاط بالحرب، طغت عليه مقاطع الذكاء الاصطناعي وألعاب الفيديو وغيرها، وقد حظيت بانتشار واسع بسبب الوجود المكثف للمستخدمين من الدولتين على منصة إكس.**

## الدوافع

إن الشك في الدوافع طريقة فعالة تقود للتحقق والوصول إلى الحقيقة وتجنب عمليات التضليل الممنهجة.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك الحرب الباكستانية الهندية الأخيرة التي شكلت تجربة مثيرة للصحفيين، بسبب الكم الهائل من المحتوى المضلل الذي أحاط بالحرب، طغت عليه مقاطع الذكاء الاصطناعي وألعاب الفيديو وغيرها، وقد حظيت بانتشار واسع بسبب الوجود المكثف للمستخدمين من الدولتين على منصة إكس، كما مثل اختلاف اللغة والطبيعة الجغرافية المختلفة، تحديا كبيرا في عمليات التحقق. وقد أضافت الرغبة الرسمية في إظهار التفوق، بعدا إضافيا للتضليل، حيث لم تقدم الجهات الرسمية بيانات واضحة عن خسائرها، وشاركت في نشر المعلومات المضللة.

خلال تلك الحرب، كان كل مقطع عن خسائر أي طرف، ينظر إليه من تلك الزاوية، مع إضافة مراحل تحقق إضافية؛ لتأكيد المكان والزمان بشكل دقيق، وهو ما ساعد في تجنب عشرات المقاطع المضللة.

كما عززت الحرب بين إسرائيل وإيران، ضرورة فهم الدوافع خلال عملية التحقق، حيث انتشرت مقاطع تظهر هروب مساجين، أو خروج مواطنين عبر المعابر الرسمية، وغيرها من المشاهد التي كانت تتوافق من حيث السياق مع حالة الحرب، كما أن شكل المباني والشوارع كان موافقا أيضا للطبيعة الجغرافية لإيران. لكن التفكير في دوافع النشر، هو الذي قاد إلى البحث المكثف حول كل المقاطع المشابهة التي تبين أن أغلبها زائف، وأنها كانت ضد حملة إعلامية قادتها حسابات إسرائيلية لمحاولة إظهار انهيار النظام الحاكم في إيران.

## ما بعد الشك

يمكن عدّ عملية الشك وطرح الأسئلة الأساسَ الأول لعملية التحقق، معتمدة بشكل كامل على قدرة الصحفي على تجاوز الانحيازات الشخصية، والتفكير المتأنّي في كل مقطع.

وربما يحضر مصطلح التفكير المتأني بوصفه عنصرا أساسيا في العملية، حيث يجعلنا التفكير السريع أسرى للمعلومات المتداولة والمتاحة للعامة، ويجعلنا نفكر بكل الانحيازات المسبقة، لكن التفكير ببطء، يجعل من السهل إعادة التفكير في كل المسلمات.

بعدها تبدأ المرحلة الأسهل من عملية التحقق والمتعلقة بالوصول إلى الأجوبة، إذ سيكون لتفكير الصحفي وطريقته في تقييم المصادر الدور الأهم بشكل يفوق كل الأدوات المتاحة في أغلب الأوقات.

هكذا، تتدرج الأسئلة من الأهم إلى الأكثر أهمية، وتصبح عاملا حاسما في سرعة الوصول إلى إجابة حول صحة أي معلومة، وهو ما يعد ضروريا في عمليات التحقق خلال التغطيات الإخبارية.

وتأتي الأدوات باعتبارها المرحلة الأخيرة في عملية التحقق، حيث تؤدي حاسة الصحفي دورا حيويا في اختيار الأداة الأنسب القادرة على الإجابة على تساؤلاته حول المحتوى. وعليه، فإن عملية التحقق، ليست سوى استخدام مكثف للحس النقدي لدى الصحفي معتمدا على رؤيته للمصادر والسياقات والدوافع، في محاولة لتفادي عمليات التضليل المستمرة والتحديات التي تفرضها طبيعة التغطيات الإخبارية الجارية.

الشك في الدوافع طريقة فعالة تقود للتحقق والوصول إلى الحقيقة وتجنب عمليات التضليل الممنهجة.

# المراجع


1) وحدة للتحقق من الأخبار داخل شبكة الجزيرة الإعلامية

2) https://www.science.org/doi/10,1126/science.aap9559

3) https://www.propublica.org/article/x-verified-accounts-misinformation-israel-hamas-conflict

4)https://www.srf.ch/audio/international/realistische-fantasy-die-3d-erklaervideos-der-israelischen-armee?id=AUDI20251008_NR_0066

5)https://7amleh.org/post/a-war-without-bullets-ar

# الصحة شأن سياسي وعلى الصحافة أن تكون كذلك

أنيس الجرماني

يدافع المقال عن أطروحة جوهرية مفادها أن الصحة، باعتبارها قضية مجتمعية مركزية، لا يمكن فصلها عن السياسات العامة والقرارات السياسية التي تحدد مآلاتها. ومن ثم، فإن دور الصحفي لا يقتصر على نقل المعلومات الطبية أو تبسيط المصطلحات للجمهور، بل يتجاوز ذلك إلى مساءلة السياسات الصحية بحس نقدي، وتحليل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بما يعيد النقاش إلى جوهره: الصحة كحق عام ومسؤولية سياسية قبل أن تكون شأنا تقنيا.

في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر 2023، أدلى وزير الدفاع الإسرائيلي السابق يوآف غالانت بتصريحه الشهير بشأن قطاع غزة: «لن يكون هناك كهرباء ولا طعام ولا ماء ولا وقود، كل شيء سيكون مغلقًا» (1).

كان التصريح صادما بقدر ما كان مقلقا؛ ماذا يعني أن تُقطَع مقومات الحياة الأساسية عن شعب محاصر؟ وهل يمكن لأهالي غزّة أن ينجوا؟ ومتى؟

حتى تلك اللحظة، لم يكن عملي طبيباً وباحثاً في الصحّة العامة قد قادني إلى التركيز على فلسطين. ومع ذلك، شعرتُ بدافع قهري للتحقّق، فكان عليّ رسمُ صورةٍ شاملة للمجتمع الفلسطيني في غزّة: كم عدد سكانها؟ ما متوسط أعمارهم؟ وما هي حالتهم الصحيّة العامة؟ ثم انتقلت إلى النظام الصحي نفسه: هل كان قادرا على استيعاب الطوفان الوشيك من الجرحى؟ وهل يمكنه مواصلة رعاية المرضى الموجودين أصلا؟ وأخيرا، سعيتُ إلى تحديد خط أساس لمحددات الصحّة في غزة متسائلا: كيف أثّرت ست عشرة سنة من الحصار الإسرائيلي على أنماط التغذية والمياه والصرف الصحي والثروة والسكن، قبل أن يقرر الاحتلال قطعها تماما؟

في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2023، نشرتُ الإجابات المروّعة عن هذه الأسئلة، (2) وخلصتُ إلى يقين بأن إسرائيل على وشك ارتكاب إبادة جماعية في غزة. لم أكن أملك معلومات سرية، ولم أكن باحثا في دراسات الإبادة؛ اكتفيتُ بتحليل البيانات العامة المتاحة عن غزّة، والأهم من ذلك أنني أخذتُ تصريحات المسؤولين الإسرائيليين على محمل الجد، واستنتجتُ تبعات نواياهم المعلَنة في ضوء الخطّ الأساسي الذي رسمتُه.

تشكّل بيانات الصحة مدخلا فعّالا لفهم ما يتجاوز الطب؛ إذ تفتح الأفق على الاقتصاد، والنظم السياسية والمالية العامة، والبُنى الاجتماعية، والعلاقات الدولية، والجغرافيا السياسية. غير أن الاستفادة من هذا المدخل مرهونة بشرطين أساسيين؛ أوّلًا: اليقين بأن الصحّة شأنٌ سياسيّ في جوهرها. ثانيا: إخضاع المعلومات المتاحة للتحليل النقدي. وعندما يتحقق هذان الشرطان ينكشف عالم بأكمله قادر على كشف حقائق خفيّة، بل قادر على التنبؤ بالمستقبل أحيانًا.

## سياسة الصحة

أخطر سوء فهم يمكن أن يقع فيه المرء بشأن الصحة هو الاعتقاد بأنها قائمة في مجال مستقل بذاته؛ ففي هذا المجال - الذي يتخيل عادة على أنه مستشفى - يتحدث الخبراء بالمعاطف البيضاء بلغة توحي باليقين العلمي المطلق، ويُختزل مفهوم الرعاية في الأدوية والجراحات. لكن الواقع مختلف تماما؛ إذ إن الصحة هي نتاج تفاعلات جدلية معقدة بين الإنسان وما نسميه محددات الصحة الاجتماعية: الدخل والمكانة الاجتماعية، والتعليم، والعمل وظروفه، وشبكات الدعم الاجتماعي، والبيئة المادية، ونمو الطفل السليم، والخدمات الصحية، والنوع الاجتماعي، والثقافة، والبيئات الاجتماعية. إنّ الخدمات الصحية التي نميل إلى اعتبارها جوهر النقاش حين نتحدث عن الصحة ليست سوى واحد من عشرة مكونات واسعة ومترابطة تحدد مجمل تجربة الإنسان الحياتيّة و ليس صحته فحسب.

> **شعرتُ بدافع قهري للتحقّق، فكان عليّ رسم صورة شاملة للمجتمع الفلسطيني في غزّة: كم عدد سكانها؟ ما متوسط أعمارهم؟ وما هي حالتهم الصحيّة العامة؟ ثم انتقلت إلى النظام الصحي نفسه: هل كان قادرا على استيعاب الطوفان الوشيك من الجرحى؟ وهل يمكنه مواصلة رعاية المرضى الموجودين أصلا؟**

أصبح من السهل شرح هذا التعقيد بعد جائحة كوفيد-19، التي قدمت مثالا حيّا على كيفية تعطيل مسألة طبية العالمَ بأسره، وكشفت عن مستويات عميقة من التفاوت في الثروة (مثل البلدان والأفراد القادرين على تحمل كلفة اللقاحات)، والتعليم (إغلاق المدارس)، والخدمات الصحية (اللقاحات وأجهزة التنفس الاصطناعي)، والثقافة (قوانين تتبّع المرضى وفرض الكمامات) وغيرها.

السؤال الحقيقي إذن هو: لماذا يُراد لنا أن نصدق باستمرار أن الصحة مرادفة للطب فقط؟ إن هذا التبسيط المضلل يروّج لرؤية فردانية للصحة العامة؛ حيث يُعتبر كل فرد مسؤولا عن صحته وحده. ويُعزى ذلك بالأساس إلى الاقتصاد السياسي للصحة الذي قلّص خلال نصف القرن الماضي أدوارَ الدولة

الاجتماعية لصالح القطاع الخاص. وهكذا أصبحت الرعاية العلاجية الفردانية والمكلفة (وبالتالي المربحة) مفضّلةً على الرعاية الوقائية الجماعية وغير المربحة. فمن الأجدى اقتصاديا استغلال الموارد الطبيعية، وخفض جودة الغذاء، وتلويث الهواء، وجني المليارات من أبحاث علاجات السرطان وأمراض القلب وتسويقها، بدلا من الوقاية منها أصلا. تعيق هذه النظرة الفردانية أيضا الصحافة الصحية؛ فإذا كانت الصحة للخروج من هذا الفخ؛ فاستشارة الخبراء في العمليات البيولوجية للصحة والمرض ليست سوى نقطة انطلاق أمام الصحفيين والجمهور معا للغوص في عمق القضايا السياسية التي أنتجت هذه النتائج البيولوجية. نحن جميعا نعيش يوميا ونشارك في إنتاج محددات الصحة الاجتماعية، وبالتالي نملك آراء مستنيرة حولها. وبينما لا يستطيع الجمهور أن يطالب بتغيير بيولوجيا الإنسان فإنه يمكنه بالتأكيد أن ينظّم نفسه لتحسين المفتوح، بل أيضا لأن مسؤوليها صرحوا علنا بسياسة تهدف إلى تعزيز تفشي الأمراض في القطاع لتحقيق أهدافهم العسكرية. ففي مقالة رأي كتبها الجنرال الإسرائيلي المتقاعد والمستشار الأمني القومي غيورا إيلاند (3) الذي شارك لاحقا في إعداد «خطة الجنرالات» (4) لتفريغ شمال غزّة من سكانه، يقول: «إنّ الأوبئة الشديدة في جنوب قطاع غزّة ستُقرّب النصر وتُقلّل الخسائر بين جنود الجيش الإسرائيلي». لذلك عندما تَرِد

حسب إحصائيات مشروع «توثيق استهداف وتدمير القطاع الصحي في قطاع غزة» الأخيرة: قتل الاحتلال الإسرائيلي 1,242 من الكوادر الصحية، بينهم 130 طبيبًا و 314 ممرضًا (رويترز).

شأنا فرديا بحتا فما الجدوى من نقل النقاش إلى المجال العام؟ وإذا كان الأطباء والعلماء وحدهم يشكلون السلطة في شؤون الصحة - وقد جرى كذلك نزع الطابع السياسي عن تدريبهم وممارستهم خلال العقود الأخيرة - فما الغاية من الصحافة سوى نقل مصطلحاتهم التخصّصيّة إلى الجمهور؟

إن تبني محددات الصحة الاجتماعية بصفتها أساسا لتحليل صحة الأفراد والمجتمعات هو السبيل الوحيد محدداته الاجتماعية للصحة؛ لأن هذه المحددات - كما يدل اسمها - يصنعها المجتمع نفسه.

وينطبق ذلك على أي سياق وأي مرض؛ فقضية غزة - مثلا - تعدّ من أوضح الحالات التي يمكن تحليلها وفهمها من خلال محددات الصحة الاجتماعية. ليس فقط لأن إسرائيل تتحكم في كل تفاصيل الحياة الفلسطينية داخل هذا المعتقل التقارير عن تفشّي الإنفلونزا (5) والكوليرا (6) والتهاب الكبد A

(7) وشلل الأطفال (8) ومتلازمة غيان-باريه (9) في غزّة، لا يحتاج الأمر إلى كثير من التحاليل العلميّة لمعرفة السبب؛ إذ يكفي النظر في الظروف التي خلقتها إسرائيل، والتي حفّزت ظهور وتفشي هذه الأوبئة. ومع ذلك، لا بدّ لفهم هذه الظروف فهمًا صحيحا من تحليل الأرقام نقديّاً.

تشكّل بيانات الصحة مدخلا فعّالا لفهم ما يتجاوز الطب؛ إذ تفتح الأفق على الاقتصاد، والنظم السياسية والمالية العامة، والبُنى الاجتماعية، والعلاقات الدولية، والجغرافيا السياسية (تصوير: إليز بلانشارد - غيتي).

## تحليل البيانات نقديًا

كانت أولى المفاجآت التي واجهتُها عند التعمّق في بيانات الصحّة الفلسطينية هي وفرتها الهائلة؛ فبوصفي باحثا لبنانيا في مجال الصحة العامة اعتدتُ على مواجهة النقص المزمن في البيانات في لبنان. أما فلسطين فهي حالة مختلفة تماما: هناك إحصاءات سكانية، وسجلات تفصيلية للأمراض المزمنة والحادة، ودراسات عن الإدمان والصحّة النفسية، ومسوح واسعة حول الفقر والبطالة والسكن والوصول إلى الكهرباء والتغذية. هذا السيل المتواصل من البيانات تنتجه وكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية، بل حتى إسرائيل التي تُسهم في هذا الغنى الإحصائي من خلال مراقبتها الهوسيّة للسكان الفلسطينيّين.

لكن لا ينبغي التعامل مع أيٍّ من هذه الأرقام بوصفها حقائق مطلقة؛ فمن المعروف أن نتائج البحوث والمسوح يمكن أن تتأثّر بسهولة - عن قصد أو من دونه - بمن يصمّمها أو يموّلها. وحتى مع أخذ هذا التأثر بحسن نيّة تبقى البيانات محدودة بالمنهجية وبالظروف الميدانية التي تشكّل سياق جمعها.

هذه الهشاشة الجوهرية غذّت حربًا حقيقية على الحقائق، تجلّت بوضوح في الإنكار الإسرائيلي المستمر لأرقام الوفيات التي تنشرها وزارة الصحّة في غزّة، ووصمها بأنها «أرقام حماس». ولتفادي الوقوع في فخ هذا الجدل الممنهج، يكفي الرجوع إلى السجل التاريخي؛ ففي الاعتداءات الإسرائيلية السابقة على غزّة كان للفلسطينيين مصلحة مباشرة في توثيق شهدائهم بدقّة؛ إذ كانت الأرقام الدقيقة شكلا من أشكال المقاومة السياسية. ومن غير المعقول افتراض أنهم بعد السابع من تشرين الأول/أكتوبر غيّروا فجأة منهجيتهم. ومع تقدّم الإبادة، استقر عدد الشهداء المُبلّغ عنهم عند نحو 60 ألفا حتى مع تفاقم الأوضاع الميدانية بشكلٍ كارثي.

لكن القراءة النقدية للأرقام - حتى تلك الصادرة عن مصادر موثوقة - تكشف محدوديتها؛ فوزارة الصحّة - بحثا عن أقصى حدود الدقة في توثيق كل حالة وفاة - لم تسجل سوى الوفيات التي وصلت إلى المستشفيات. ومع تدمير إسرائيل معظمَ المرافق الصحية، وقتلها الكوادر الطبّية، وقطعها الطرقات، تُرك آلاف - وربما مئات الآلاف من الشهداء - مدفونين تحت الأنقاض بلا تسجيل أو توثيق.

إنّ عملية جمع البيانات لا تنفصل أبدا عن السياق السياسي؛ فقد طال نزع الطابع السياسي عن الصحة والمنظّمات المكلفة بمراقبتها أيضا. والمفارقة العميقة هي أنه رغم عقودٍ من تراكم البيانات حول معاناة الفلسطينيين، لم تتخذ الوكالات الدولية يومًا موقفا حاسمًا من السياسات الإسرائيلية التي تسببت في تلك النتائج.

هذه المنظّمات - بحكم وظيفتها - مهيكلة لحماية الوضع القائم الذي يبرر وجودها وتمويلها؛ فهي تستخدم بانتظام شهادات الفلسطينيين وبياناتهم، لكنها

تستبعدهم من كتابة التقارير والبيانات التي تفسر هذه المواد. لذلك، لم يكن مستغربا أن يُطلب من الجراح الشهير غسّان أبو ستّة الاستقالة من منظّمة أطباء بلا حدود (10) ومنظّمة الإغاثة الطبية للفلسطينيين؛ (11) لأن هاتين المؤسستين لم تريدا الارتباط بدعوته السياسية لاتخاذ موقفٍ حاسم ضدّ الإبادة الجماعية.

> **إذا كانت الصحة شأنا فرديا بحتا فما الجدوى من نقل النقاش إلى المجال العام؟ وإذا كان الأطباء والعلماء وحدهم يشكلون السلطة في شؤون الصحة - وقد جرى كذلك نزع الطابع السياسي عن تدريبهم وممارستهم خلال العقود الأخيرة - فما الغاية من الصحافة سوى نقل مصطلحاتهم التخصّصيّة إلى الجمهور؟**

من المؤسف أن العالم العربي يفتقر إلى مراكز بحثية مُموّلة ومنتجة، قادرة على توليد بيانات أصيلة على يد شعوب المنطقة ومن أجل شعوبها. ورغم غياب مثل هذه المؤسسات، فإن الأمر الأكثر إزعاجا هو أن كثيرا من الصحفيين العرب لا يتعاملون نقديًا مع الكمّ الهائل من البيانات المتاحة، بل يكتفون بنقلها كما هي، مكرّرين تحليلات صاغها فاعلون تختلف مصالحهم جذريًا عن مصالح المجتمعات التي يكتبون عنها.

## استعادة السياسة في الصحافة

إذا كانت الصحة شأنا سياسيا، فإنّ الكتابة عنها لا يمكن أن تكون إلا كذلك؛ فعلى الصحفي الذي يكتب في هذا المجال أن ينطلق من حقيقة أنّ البيانات والطبّ والمرض جميعها متجذّرة في شبكةٍ من علاقات القوّة التي يشارك فيها الجميع، وليس الخبراء والأطباء وحدهم.

إن قراءة البيانات المتاحة للعامة نقديا وتأطيرها تاريخيا قادرة على كشف حقائق تسعى الحكومات والمنظمات إلى إخفائها. وبالنسبة إلى الصحفيين، يمثل ذلك تحديا ومسؤولية في آن معا. يجب أن يتجاوز تناول الصحة لغة الأرقام الجافة والمصطلحات الإنسانية المحايدة إلى ميدان السياسة ذاته، رابطا الأعراض بالبنى، والمرض بالسياسات، والموت بالقرارات. وعبر هذا الانتقال تتحرّر الصحافة من دورها كمكبرِ صوتٍ للسلطة القائمة، وتستعيد مَكانتها بصفتها فاعلا سياسيا واعيا.

تذكرنا سياسة الصحّة بأن فهم المرض يعني فهم العالم الذي ينتجه. وإذا كان هذا العالم عالما من الإبادة والتجويع والاحتلال، فإن مهمّة الصحفي - تماما كما هي مهمّة الطبيب - لا تقتصر على التشخيص، بل تمتد إلى الوقاية واستباق وقوع الكارثة.

يجب أن يتجاوز تناول الصحة لغة الأرقام الجافة والمصطلحات الإنسانية المحايدة إلى ميدان السياسة ذاته، رابطا الأعراض بالبنى، والمرض بالسياسات، والموت بالقرارات (تصوير: عرفات بربخ - رويترز).

# المراجع


(1) Al Jazeera. «Israel Announces ‘Total’ Blockade on Gaza.» Al Jazeera. October 9, 2023. https://www.aljazeera.com/news/2023/10/9/israel-announces-total-blockade-on-gaza.

(2) الجرمانـي، أنيـس. «الوضـع الصحـي في قطـاع غـزّة: العيـش في جحيـم الاحـتلال.» الصفّـر. 14 تشـرين الأول 2023. https://alsifr.org/health-situation-gaza.

(3) Ofir, Jonathan. «Influential Israeli National Security Leader Makes the Case for Genocide in Gaza.» Mondoweiss. November 20, 2023. https://mondoweiss.net/2023/11/influential-israeli-national-security-leader-makes-the-case-for-genocide-in-gaza/.

(4) Jaber, Samer. «The Israeli ‘General’s Plan’ for Northern Gaza Is Unlikely to Succeed.» Al Jazeera. October 16, 2024. https://www.aljazeera.com/opinions/2024/10/16/the-israeli-generals-plan-for-northern-gaza-is-unlikely-to-succeed.

(5) SOS Children’s Villages. «Children in Gaza Are Consistently Suffering Respiratory Problems and Severe Flu – SOS Children’s Villages.» ReliefWeb. May 29, 2025. https://reliefweb.int/report/occupied-palestinian-territory/children-gaza-are-consistently-suffering-respiratory-problems-and-severe-flu-sos-childrens-villages.

(6) Action for Humanity. «Disease Is Going to Take Hold in Gaza, Thanks to ‹Purposeful Dismantling› of Health Care.» Action for Humanity. December 2, 2023. https://reliefweb.int/report/occupied-palestinian-territory/disease-going-take-hold-gaza-thanks-purposeful-dismantling-health-care-action-humanity.

(7) United Nations News. «Gaza: ‘Frightening Increase’ in Hepatitis A Cases.» UN News. August 2, 2024. https://news.un.org/en/story/2024/08/1152791.

(8) United Nations News. «Gaza: First Polio Case Confirmed in War-Shattered Enclave.» UN News. August 23, 2024. https://news.un.org/en/story/2024/08/1153486.

(9) Gaza oPt Health Cluster and World Health Organization. Powerless in Gaza: Guillain-Barré Syndrome. October 14, 2025. https://reliefweb.int/report/occupied-palestinian-territory/powerless-gaza-guillain-barre-syndrome.

(10) Chicago Citation Helper. «Permission to Narrate a Humanitarian Crisis.» October 12, 2025. https://chatgpt.com/g/g-67ae38d1b4648191b318ed61e5f6f23d-chicago-citation-helper/c/69071640-95d8-8329-a155-fb32e1c4a967.

(11) Abu Sitta, Ghassan (@GhassanAbuSitt1). «My story with MSF pales in comparison with my story with Medical Aid for Palestinians...» X (formerly Twitter). October 13, 2025, 3:40 p.m. https://x.com/GhassanAbuSitt1/status/1977716019444564166.

# كيف تجعل الصحافة أزمة المناخ قضية الناس؟

بنا سلامة

**بين استيراد منظومة مفاهيم ومصطلحات غربية لا تنسجم مع البيئة العربية، وإنكار الأزمة المناخية أو العجز عن تبسيطها وشرحها للناس، تبرز قيمة الصحافة في تنوير الجمهور وإظهار أن قضايا التغير المناخي تمس جوهر الحياة اليومية للإنسان العربي.**

بين الأخبار الرسمية عن المؤتمرات والاتفاقيات المناخية الدولية، وخطط حكومية مفرطة في التفاؤل، وتغطيات صحفية غارقة في التشاؤم أو المصطلحات التقنية، قد يشعر العديد بأن قضية التغيّر المناخي معقدة وحتمية، وفي الوقت ذاته، مجردة وبعيدة عن الواقع اليومي.

من جهة أخرى، قد يبدو الحديث عن أزمة المناخ ترفا في ظل الحروب والأزمات المعيشية والسياسية التي تشهدها الدول العربية، ورفاهية لا يمكن للدول - سوى الغنية والمستقرة منها - الانشغال بها. كما أن البعض يشكك في السرديات السائدة حول تغيّر المناخ في المنطقة، خاصة أن كثيرا من المعلومات مستمدة من منظمات دولية ومصادر غربية قد تحمل أهدافا غير واضحة أو تُقدَّم بمنظور لا يعكس الواقع المحلي وأولويات شعوب المنطقة.

لكن كونها من أكثر مناطق العالم تأثرا بتداعيات التغيّر المناخي، تواجه دول المنطقة تهديدات متصاعدة تمس الأمن الغذائي وأمن الطاقة، والصحة العامة، والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي. تتضح آثار الاحتباس الحراري بشكل متزايد يومًا بعد يوم من الخليج إلى المغرب العربي، جرّاء موجات الحرّ الحادة والمتكررة، وفترات الجفاف الطويلة، وارتفاع مستوى سطح البحر، والحرائق والفيضانات والعواصف الرملية. وتبقى الفئات الأكثر تأثرا في مواجهة التحديات الناجمة عن هذه التحولات هي: صغار المزارعين والرعاة والعمال الزراعيون والصيادون والأسر ذات الدخل المحدود.

وسط تزايد المخاطر وتباين الآراء والأولويات، كيف يمكن للصحافة أن تؤدي دورها في التحقق من المعلومات وتحليل السياسات المناخية ومساءلة المؤسسات والسلطات وإيصال الأصوات المستثناة من النقاش العام، وتأطير القضايا وترجمتها من مفاهيم مجردة إلى واقع ملموس؟

قد يبدو بديهيا أن للعناوين دورا محوريا؛ إذ تمثّل أول ما يلفت انتباه الجمهور وتؤثّر في قراره بشأن التفاعل مع المحتوى أو تجاوزه. كما لا يقتصر دور العناوين على جذب الانتباه فقط، بل يساهم في تشكيل الإطار الذي يَفهم من خلاله الجمهور القضايا المختلفة، ويوجّه تصوراته عنها، بما في ذلك قضيّة التغيّر المناخيّ.

عند مراجعة أبرز العناوين المتعلقة بالتغيّر المناخي في المنطقة، يتضح أن أغلبها يغلب عليه إما طابع التشاؤم والتركيز على الكوارث البيئية الشديدة، ووصف الأحداث المتطرفة القادمة بأنها حتمية ووشيكة مثل «الحرارة تخرج عن السيطرة: كارثة مناخية بانتظار كوكب الأرض بحلول 2200»، وهو ما يجعل القارئ يفقد الاهتمام حتى وإن كان الخبر دقيقا، وإما استخدام مصطلحات علمية معقدة بالنسبة للبعض مثل «الغازات الدفيئة» و«تخزين الكربون»، أو مفاهيم تبدو بعيدة عن حياة الناس مثل «ذوبان القطب الشمالي» و«احترار المحيطات» كما في العنوان التالي: «احترار المحيطات يعطل عمليات تخزين الكربون الحيوية». في حين أن صياغة العناوين بأسلوب يربط الظاهرة بتأثيرها المباشر على حياة الناس يمكن أن تجعلها أوضح وأكثر قربًا من المتلقي؛ كما في: «38,4٪ انخفاض إنتاج الحبوب الشتوية في لبنان بسبب الحرب والمناخ» أو «الجفاف والتصحر والهجرة تهدد واحات المغرب بالاندثار». في المقابل، كثيرا ما تُقدّم تغطيات المؤتمرات والمشاريع «الخضراء» بعناوين رسمية وعالية النبرة، توحي بأن الأمور تسير وفق خطة مدروسة، وهذا يجعل الأزمة تبدو شأنا تقنيا وإداريا بعيدا عن واقع الناس اليومي مثل «الأردن يواجه التغير المناخي بـ 86 مشروعا للنمو» أو «الشرق الأوسط الأخضر.. ماذا تستهدف المبادرة السعودية للحياد الكربوني؟» مغفلة أحيانا أزمات مقلقة مثل جفاف السدود وتراجع المحاصيل وازدياد الضغوط على موارد المياه والطاقة.

> **قد يبدو الحديث عن أزمة المناخ ترفا في ظل الحروب والأزمات المعيشية والسياسية التي تشهدها الدول العربية، ورفاهية لا يمكن للدول الانشغال بها. كما أن البعض يشكك في السرديات السائدة حول تغيّر المناخ في المنطقة، خاصة أن كثيرا من المعلومات مستمدة من مصادر غربية قد تحمل أهدافا غير واضحة أو تُقدَّم بمنظور لا يعكس الواقع المحلي وأولويات الشعوب.**

لكن الأزمة المناخية ليست مجرد نظريات وتقارير دولية ومصطلحات معقدة؛ إنها حاضرة يوميا، متمثلة في ارتفاع أسعار الطعام والغش في الصناعات الغذائية نتيجة تراجع الإنتاج، وانقطاع الكهرباء بسبب زيادة الطلب على التكييف، وزيادة حالات الجفاف وضربات الشمس والتسمم الغذائي لدى كبار السن

شهد عام 2024 أحداثًا مناخية متطرفة ومدمرة في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك موجات الحر الشديدة، والجفاف والفيضانات (تصوير: لوكاس نينو - غيتي).

والأطفال نتيجة موجات الحر الطويلة، وزيادة عدد الولوج إلى المستشفيات بسبب انتشار الأمراض التنفسية والحساسية الناتجة عن الغبار، والنزوح نتيجة فقدان سبل العيش، وتراجع جودة وخدمات المياه والصرف الصحي نتيجة انخفاض هطول الأمطار، وزيادة الاعتماد على المبيدات الحشرية في ظل انتشار الآفات، وغيرها الكثير.

رغم أن هذه الأخبار - من ارتفاع أسعار الطعام إلى انقطاع الكهرباء - تحظى بتغطية واسعة، فإنها كثيرا ما تقدم بمعزل عن سياق التغير المناخي، إلا أن ارتباطها المباشر بتفاصيل الحياة اليومية يجعلها مدخلا فعّالا لطرح القضيّة بطريقة أقرب وأكثر وضوحا للجمهور. عنوان مثل «لماذا ارتفعت فاتورة الكهرباء؟» قد يَلقَى تجاوبًا أكبر بكثير من عنوان عام مثل «تهديدات موجات الحَرّ» لأنَّ القارئ يريد فهم العوامل التي تمس واقعه.

> **رغم أن أخبار ارتفاع أسعار الطعام وانقطاع الكهرباء تحظى بتغطية واسعة، فإنها كثيرا ما تقدم بمعزل عن سياق التغير المناخي، لكن ارتباطها المباشر بتفاصيل الحياة اليومية يجعلها مدخلا فعّالا لطرح القضيّة بطريقة أقرب وأكثر وضوحا للجمهور.**

تنطبق المفاهيم نفسها على مضمون التغطيات أيضا وليس على العناوين فقط؛ فعندما يكون المحتوى عامًا جدًا وتقنيًا مثل مناقشة «صعوبة التكييف مع المناخ» أو «بناء مدن مستدامة» دون التطرق إلى تفاصيلها ومعانيها في سياق القارئ، تتسع الفجوة بين الصحافة المناخية والجمهور.

في المقابل، يمكن تناول مواضيع التغيّر المناخي من خلال أساليب متنوعة وَفقا لطبيعة المادة المطروحة والجمهور المستهدف. يُعتبر السرد القصصي لتجارب الناس الواقعية مع آثار التغيّر المناخي أحد القوالب الفعّالة للوصول إلى الجمهور بشكل أعمق، ويمكن دعمه بمعلومات علمية

تعـزز قدرتـه على توضيـح الصـورة الأكبـر.

فعلـى سـبيل المثـال، يمكـن تنـاول النقـص التاريخـي في الأمطـار هـذا العـام مـن زاويـة ملموسـة عبـر تتبّـع موسـم الزيتـون وارتفـاع أسـعار الزيـت، وتسـليط الضـوء على قصـص مزارعيـن يواجهـون تراجعـا في إنتـاج محاصيلهـم، وإسـناد هـذه القصـص ببيانـات تعكـس انخفـاض إنتـاج الزيتـون أو تراجـع معـدلات هطـول الأمطـار في الأعـوام الأخيـرة أو غيرهـا مـن المؤشـرات التـي تعكـس ملامـح التغيّـر المناخـي وتقاطعاتهـا مـع الواقعيـن الاقتصـادي والاجتماعـي. ونظـرًا للـدور المحـوري الـذي يؤديـه توقيـت النشـر في صـدى الطـرح، فـإن وجـود شـخص مطّلـع على هـذه القضايـا ومسـتعدّ لتناولهـا حيـن تكـون في صـدارة النقـاش يعـزز قـدرة التغطيـة الصحفيـة على الوصـول إلـى الجمهـور بشـكل فعّـال ومرتبـط بالواقـع. كمـا يمكـن، عنـد مخاطبـة جمهـور أكثـر تخصصًـا أو اهتمامًـا، تنـاول المسـائل مـن زوايـا تحليليـة أعمـق، سـواء عبـر تفكيـك البنيـة التحتيـة والسياسـات العامـة أو دراسـة إدارة المـوارد أو التبايـن الاجتماعـي في التحديـات أو غيرهـا.

بغـض النظـر عـن طبيعـة المادة الصحفيـة، تسـاهم الرسـوم البيانيـة - عنـد توظيفهـا بشـكل مناسـب - في توضيـح المعلومـات وربـط الظواهـر المناخيـة بسـياقها بشـكل فعّـال قـد لا يمكـن أن يحققـه النـص وحـده، سـواء التغيّـر عبـر الزمـن مثـل معـدّل هطـول الأمطـار أو مسـاحة المراعي، أو المقارنـات مثـل مقارنـة حصّـة الفـرد مـن الميـاه في منطقـة معينـة مـع مناطـق أخـرى أو بالمعاييـر الدوليـة، أو التوزيـع مثـل توزيـع مصـادر الطاقـة في دولـة معينـة، أو العلاقـات مثـل ارتبـاط ارتفـاع درجـات الحـرارة بتقلّص المراعـي الطبيعيـة.

على سـبيل المثـال، بـدلًا مـن الاكتفـاء بالقـول إن «حصـة الفـرد مـن الميـاه في الأردن تقـلّ بنحـو 88 بالمئـة عـن خـط الفقـر المائـي العالمـي»، قـد يُظهـر الرسـم البيانـي التالـي للمتلقـي صـورةً أبلـغ؛ فهـو يجسـد تزايـد حـدّة الأزمـة عبـر الزمـن، كمـا يضـع الأرقـام في إطارهـا النسـبي مقارنـة مـع خطـي الفقـر والكفايـة المائيـة.

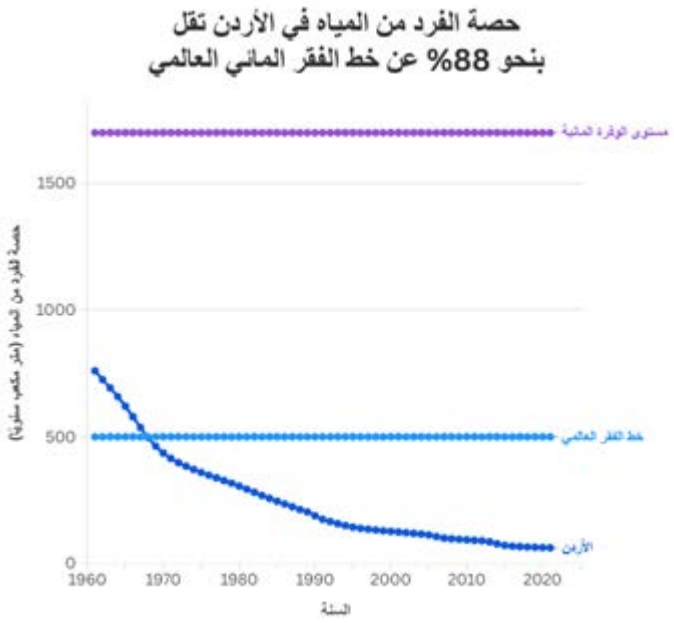


مصدر البيانات: Our World in Data www.ourworldindata.org

**يظهر من مراجعة العناوين أن أغلبها يغلب عليها إما طابع التشاؤم والتركيز على الكوارث البيئية الشديدة، ووصف الأحداث المتطرفة القادمة بأنها حتمية ووشيكة مثل «كارثة مناخية بانتظار كوكب الأرض بحلول 2200»، وهو ما يجعل القارئ يفقد الاهتمام حتى وإن كان الخبر دقيقا، وإما استخدام مصطلحات علمية معقدة بالنسبة للبعض مثل «الغازات الدفيئة» و«تخزين الكربون»، أو مفاهيم تبدو بعيدة عن حياة الناس.**

يُعتبر السرد القصصي لتجارب الناس الواقعية مع آثار التغيّر المناخي أحد القوالب الفعّالة للوصول إلى الجمهور بشكل أعمق، ويمكن دعمه بمعلومات علمية تعزز قدرته على توضيح الصورة الأكبر (تصوير: إحسان حفيجي - غيتي).

من اللافت للانتباه أنه في حين قد يشعر الصحفيون أحيانًا أن تغطية القضايا المعقدة مثل الأزمة المناخية تتطلب تقديم حلول، إلا أن بعض الدراسات (1) تظهر أن الناس قد يرفضون القضية المطروحة برمتها إذا كانت الحلول المقدمة لا تتوافق مع آرائهم السياسية. فالإسراع في تقديم الحلول قد يهمّش فهم جوهر القضية وأبعادها، وهو ما يستدعي تقييم أهمية طرح الحلول بحسب ما يقتضيه السياق.

عند تغطية التغيّر المناخي في المنطقة العربية، لا يواجه الصحفيون تحديًا معرفيًا فحسب، بل تحديًا في بناء الثقة مع الجمهور في قضية كثيرًا ما تُقدَّم من خلال عدسة «غربية» تنقل سرديات حول «المشاريع

الخضراء» و«الاستدامة» وأجندات مرتبطة بسياسات تعزز مكاسب القوى المهيمنة والتطبيع البيئي لإدامة أنماط الاستغلال والاستيلاء على الموارد الطبيعية على حساب مجتمعات المنطقة. يزداد هذا التحدي شدّة بسبب استمرار نفوذ الدول الصناعية والجهات التي ساهمت تاريخيًا في تفاقم الأزمة المناخية، وهو ما يزيد شعور الجمهور بعدم الثقة في الاستجابة الدولية لها، خاصة حين يُلقَى على عاتق الدول والمجتمعات الأقل إسهامًا في الانبعاثات عبء غير متكافئ من تكاليف التكيّف والحلول، ويُفاقمه الاعتمادُ المتزايد على القروض من مؤسسات عالمية تحت مسمى «التمويل البيئي» تضيف أعباء مالية جديدة بدل دعم حقيقي يراعي العدالة المناخية.

إلى جانب البعد السياسي، يساهم اعتماد المعلومات كما تَرِد من مصادر غربية في تعميق فجوة الثقة لدى الجمهور من المنظور المنهجي والمعرفي؛ إذ لا تنطبق كثير من هذه المفاهيم على المنطقة العربية بالطريقة نفسها. مثلًا، يُقدَّم قطاع تربية الماشية دوليًا بوصفه من أبرز مسببات الغازات الدفيئة. لكن هذه المفاهيم لا تعكس بدقة واقع تربية الماشية في أغلب دول المنطقة التي رغم مواجهتها تحديات بيئية فإن طبيعتها تختلف عن أنماط الإنتاج الصناعي التي تستند إليها التقديرات الدولية.

ضمن هذا السياق، تقع على عاتق الصحفيين في المنطقة مسؤولية مضاعفة تتمثل في امتلاك وعي نقدي مزدوج: أن يكونوا قادرين على إنتاج معرفة تستند إلى واقع المنطقة وأولوياتها وتُتيح المساحة لجميع الأطراف المعنية في النقاش، وأن يتعاملوا بحذر مع المعرفة الجاهزة والمصطلحات المستوردة والخطط المطروحة، بالتوازي مع البحث الدقيق في المعلومات والتحقق من المصادر ومساءلة الجهات المؤثرة في صنع القرار وإدارة الموارد.

يمكن للصحفيين في المنطقة أن يؤدوا دورا حاسمًا في تحويل أزمة التغيّر المناخي إلى قضية مفهومة وملموسة من خلال فهم عميق للمواضيع المقدَّمة وتوضيح المخاطر بطريقة بناءة وتفكيك السرديات والخطط المطروحة وتقديم المعلومات بأساليب تحوّل الصحافة المناخية من نشاط هامشي إلى ركيزة أساسية في بناء وعي مجتمعي قادر على مواجهة التحديات المتداخلة، وأداة فاعلة في تحقيق عدالة مناخية تخدم شعوب المنطقة وتصون مواردها.

## المراجع

1) Campbell, T. H., and A. C. Kay. «Solution Aversion: On the Relation Between Ideology and Motivated Disbelief.» Journal of Personality and Social Psychology 107, no. 5 (2014): 809–824. https://doi.org/10,1037/a0037963.

# يوميات صحفي في دمشق يوم التحرير

محمد ديب

**وجد الصحفي محمد ديب نفسه متأرجحا بين شعورين متناقضين: فرحة السوري بسقوط نظام استبد بالبلاد لعقود، ومسؤولية الصحفي الذي يسعى لتوثيق لحظة مفصلية في تاريخ سوريا بصفته شاهدًا عليها. في هذا المقال، يتأمل ديب المسافة الدقيقة بين الإنسان والصحفي.**

وسط أخبار متلاحقة في معركة «ردع العدوان» التي أدت إلى سقوط نظام بشار الأسد بسوريا كانون الأول / ديسمبر عام 2024، كنت أدوّن بعض الملاحظات في محادثة خاصة بي على تطبيق واتس أب، وعلى مشارف محافظة حمص تتعالى أصوات الانفجارات والقذائف وهدير الأسلحة المختلفة التي كانت تقطع لحظات النعاس في تلك الليلة، ومع بزوغ ساعات الصباح الأولى، جاء خبر انتظرناه طويلا: «سقوط نظام الأسد».

لبعض اللحظات شعرت - كغيري من السوريين «مُهجّرا في مخيمات الشمال السوري وعشتُ سنوات الحرب» - برغبة عارمة في الاحتفال، ثم تذّكرت في غمرة هذا الفرح، أني هنا بصفتي صحفيا، وأني بحاجة لضبط مشاعري. وما خطرَ لي، آنذاك، ليس الهتاف في الشارع مع ملايين السوريين، بل كيف سأوثق هذه اللحظة التاريخية: ما الصور التي يجب أن أوثقها؟ من هم الشهود الذين علي البحث عنهم، وما الخطّة التي تضمن لي عدم ضياع التفاصيل وسط الحماس الجماعي؟

رتبت الكاميرا، وتأكدت من شحن البطاريات والهاتف الشخصي مُتذكرا بعض الملاحظات، ومُدركاً أنّ طريقَ دمشق ليس مسارا جغرافيا فقط، بل انتقالا من موقع المُشاهد إلى موقع الشاهد، وكنت أحس بمزيد من المسؤولية، لأكون صحفيا لا تجره عواطف اللحظة، بقدر السعي إلى الموازنة بين ذاكرة مليئة بالدمار وبين واجب التوثيق الذي قد يُصبح لاحقاً شهادةً للتاريخ.

في الطريق إلى دمشق، عادت بي الذاكرة إلى مشهد لم أستطع تجاوزه. معرة النعمان، مدينتي التي هجّرت منها عام 2019، لم تكن مجرّد محطة على الطريق، بل جرحا عميقا. بيوت مهدمة، حقول يابسة، أشجار مقطوعة... كنت مذهولا من هول المشهد.
كابن للمدينة، كنت أستعيد صور التهجير والقصف الروسي والإيراني الذي محا ملامح الحياة منها.

إلا أنّ مهمتي جعلتني أتعامل مع المكان بطريقة مختلفة، فبدأت التقطُ الصور للبيوت المدمرة باحثاً عن تفاصيل تُدين الجُناة أكثر؛ مثل حرق الأشجار واقتلاعها، كتابات قديمة على جدران تُشير إلى أنها اتُخذت مقرّات لهم محاولا اكتشاف ما وراء الدمار، وما يمكن أن يكون شهادة موثّقة على ما فعلهُ نظام الأسد البائد وحلفاؤه في ريف إدلب الجنوبي.

## الطريق إلى دمشق

عندما اقتربت من العاصمة دمشق، تحوّلت الطريق إلى خارطة مفتوحة لعقد من الحرب، فبين النقاط العسكريّة المهجورة حديثا ودبابات محترقة على الأطراف، وبين مشاهد الجنود بملابس ممزقة يرفعون أيديهم استسلاما، بدا لي المشهد بعين المنتصر تارة، وتارة أخرى امتحانا مهنيا كذلك، توقفتُ بشكلٍ متقطّع.. التقطت صورا سريعة لجندي مرمي مع خوذته، وطريق ترابيّة مخرّبة بعد الانسحاب العشوائي، لافتات قديمة لنظام الأسد ملطّخة بالرصاص، حرصتَ جداً أن تكون الصور وثائق لا مجرد انفعالات، ثم تساءلت للحظة: أيحق لي نشر صور للجثث، هل سأجعل ملامحهم مادة خبرية أم سأحترم كرامة الموتى؟ فتحت هاتفي مجددا وكتبت في المحادثة الخاصة بي «توثيق فقط..».
والحقيقة أنني شعرت بالخوف، فقد استعدت ما فعله نظام الأسد بالمدنيين السوريين الذين طالبوا بالحرية فاعتقلوا وأعدموا. في تلك اللحظة، كمراسل صحفي، لازمني هاجس أن أكون هدفا لأي مجموعة لم تستسلم بعد أو بقايا عناصر منفلتة. لكنني ذكرت نفسي بأن دوري لا يقتصر على العودة سالما، بل على العودة بمادة توثق وتشهد على كل ما جرى.

> **لبعض اللحظات شعرت - كغيري من السوريين «مُهجّرا في مخيمات الشمال السوري وعشتُ سنوات الحرب» - برغبة عارمة في الاحتفال، ثم تذّكرت في غمرة هذا الفرح، أني هنا بصفتي صحفيا، وأني بحاجة لضبط مشاعري.**

الرابعة عصرا على مشارف دمشق، بدأت التفاصيلُ وكأنهاَ تستعدُ لقيامة خاصة بها، اختلطت الأهازيجُ بأصوات التكبيرات مع أصوات الرصاص احتفالا بالتحرير، مئات المقاتلين والمدنيين يملؤون الطرقات، البعض يقفون على حافة الفرح والخوف، آخرون يهتفون ويركضون ودبابات تجتمع في ساحة الأمويين، كأنما الجميع يريدُ أنَ يتأكد هل المشهد حقيقي؟

والنـاس الخائفيـن، لكـن كنـت حريصـا على التركيـز على مـا قـد لا يلتفـت إليـه الآخـرون بعدمـا انهـارت منظومـة خـوف كاملـة. لكـن السـؤال ظـل يطاردنـي: هـل أكتـب اليـوم بصفتـي واحـدا مـن المنتصريـن أم شـاهدا مُحايـدا؟ وقـد اختـرت أن أكـون الإثنيـن في آنٍ واحـد ابـن المدينـة الـذي يفـرح، والصحفـي الـذي يوثّـق، فمهمـة الصحفـي لا تقتصـر على نقـل مـا جـرى فقـط، بـل نقـل وتوثيـق كيـف جـرى وكيـف ظهـر مـن منظـور النـاس والأهالي وفي العدسـة مـعاً، كـي لا يتلاشـى كل شـيء فيَ ضبـابِ النسـيان.

## نحو صيدنايا

صبـاح اليـومِ الثانـي، واجهـت قـرارا صعبـا بالاتجـاه نحـو سـجن صيدنايـا الـذي لـم يكـن اسـم سـجن فقـط، بـل كان رمـزاً للرعـب في ذاكرةِ السـوريين ، وكمراسـل موقـن بـأنّ الفرصـةَ لا تتكرر، سـألت نفسـي مـا الـذي سـأكتبه عـن مسـلخ بشـري لـم يُسـمح بتغطيتـه يـوماً أو نشـر أي معلومـة عنـه؟

خلال رحلـة الطريـق، شـاهدت القـرى التـي تحيـط بصيدنايـا وكأنهـا تنعتق مـن الاسـتبداد، جُـدرانُ كُتـب عليهـا عبـارات مواليـة، وأعلام النظـام البائـد مـا زالـت معلّقـة، وعيـون متوجسّـة ممـا هـو آت، مُجـدداً فتحـت محادثتـي الخاصة بـ«واتس أب، وكتبـت: «التوثيق هنـا ليـس التقـاط صـور فحسـب، بـل علينـا أن نسـأل كيـف نقـوم بتحويـل مـا كان في السـابق خبـراً بعيـداً لشـهادة حيّـة»، حاولـت أن أتذكـر شـهاداتٍ لناجيـن قـرأت عنهـم أو سـمعت قصصهـم خلال السـنوات السـابقة، مـن أصـوات المعذبيـن، وأسـماء المفقوديـن، قصـص عـن السـجن الأحمـر. الآن أنـا أمـام البوابـة الحديديـة ذاتهـا، اختلطـت علـي المشـاعر للوهلـة الأولـى. كان السـجن جامـداً ومخيـفاً، المئـات مـن الأهالـي يبحثـون عـن ذويهـم، وكان علـيّ أن أعتمـد حينهـا على أدواتـي البسـيطة عبـر الملاحظـة الدقيقـة، وأخـذ الصـور بزوايـا واسـعة، الانطباعـات التـي التقطهـا مـن أهالـي المنطقـة والأهالـي الذيـن وصلـوا باكـراً مـن الشـمال السـوري يبحثـون عـن أي شـيء لذويهـم المعتقليـن، مشـهد مرعـب واختبـار حقيقـي للمهنـة، فهـل أكتـب والتقـط مـا أراه، أم أسـتحضر ذاكـرةَ مـن مـروا مـن هنـا ولـم يخرجـوا؟

مزجـت بيـن العنصريـن، الملاحظـة العينيـة ومـا رسـخ في الذاكـرة الجماعيـة، وحاولـت وسـطَ كثيـرٍ مـن المشـاعر أن أركـز على الوثائـق المرميّة في ممـر الدخـول للسـجن، ألتقـط وأدون، دمـوع الأهالـي وبحثهـم كان يكفـي لأن تنكسـر، لكـن مسـؤولية نقـل الحقيقـة لازمتنـي خلال طريقي، بحثـت في دهاليـز السـجن، كنـت أستنشـق رائحـة المـوت في كل مـكان مـن السـجن، الجنازيـر وأدوات التعذيب والدمـاء على الجـدران الداخليـة، الطوابـق السـفلية كانـت ممتلئـة بالورقيـات التـي حاولـت توثيقهـا مـا اسـتطعت، بقايـا مـن أشلاءِ المعتقلين على جـدران ذلـك المـكانَ والمكبـس البشـري، مجموعـات الدفـاع المدنـي

مهمتي جعلتني أتعامل مع المكان بطريقة مختلفة، بدأت التقطُ الصور للبيوت المدمرة باحثاً عن تفاصيل تُدين الجُناة أكثر وما يمكن أن يكون شهادة موثّقة على ما فعلهُ نظام الأسد (تصوير: محمد ديب).

السوري وصلت للبحث في الطوابق السفلية عن ناجين، مشاهد جعلت من كل لحظة شهادة ووثيقة على المسلخ البشري «سجن صيدنايا».

> **كان السجن جامداً ومخيفاً، المئات من الأهالي يبحثون عن ذويهم، وكان عليّ أن أعتمد حينها على أدواتي البسيطة عبر الملاحظة الدقيقة، وأخذ الصور بزوايا واسعة، الانطباعات التي التقطها من أهالي المنطقة والذين وصلوا باكراً من الشمال السوري يبحثون عن أي شيء له علاقة بأبنائهم، مشهد مرعب واختبار حقيقي للمهنة، فهل أكتب والتقط ما أراه، أم أستحضر ذاكرةَ من مروا من هنا ولم يخرجوا؟**

بينما كانت الوثائق تتطاير في أروقة السجن، وجب علي العثور عليها وتصويرها، حتى ولو بالفيديو؛ على أمل اكتشاف أوراق تدين الجناة أو تحمل أسماء متورطين في القتل والتعذيب. التقطت صورا لوثائق تعود لأيام ما قبل تحرير بعض المناطق، تتضمن إحصاءات دخول وخروج المعتقلين شهريا. الدخول ربما يشير إلى نقل من سجون أخرى أو اعتقال جديد، أما الخروج فكان غالبا يعني الضحايا المدفونين في مقابر جماعية متفرقة في مناطق سيطرة نظام الأسد سابقا.

كانت الأرقام صادمة حقا، إذ وثقت بيانات تتحدث عن وجبات الطعام المقدمة للمعتقلين: «حبّة بطاطا مسلوقة وكسرة خبز». والمفارقة أن عدد هذه الوجبات بلغ 3245 وجبة، وربما أكثر وفق وثائق أخرى، في حين لم يتجاوز عدد المعتقلين عند تحرير السجن — بحسب روايات أهالي بلدة صيدنايا المجاورة — نحو 600 معتقل فقط، ما يكشف عن أعداد مرعبة من الضحايا الذين جرى تصفيتهم منذ بداية معركة «ردع العدوان».

يختلف معنى الصحافة في الميدان عنه في قاعات الدراسة أو غرف التحرير ليصبح المعنى أكثر تعقيدا في منعطفات تاريخية كبرى، فأنا لم أكن شاهداً على حدثٍ تاريخي فقط، بل كنت جزءا منه، حاملاً في داخلي ذاكرة مدينة محروقة مع الواجب المهني الذي فرض عليّ أن أكون هادئاً في لحظات الصخب، مُدركاً أنّ التحدّي في أن أكون ابن المكان والصحفي المحترف؛ فشعور الفقد والتهجير يلازمني في كل مشاهد الخراب، إلا أني بصفتي صحفيا، كان عليّ تحويل ذلك الألم إلى نصوص وصور يمكن أن تُقرأ بوصفها وثائق حقيقية، لا عبارة عن انفعالات شخصيّة.

## صورة معلّقة

ثمة صورة واحدة لاحقتني كثيرا، مشاهد الجنود الهاربين الذين اعتدنا أن نشاهدهم يقصفون مدننا، فهذه المرة كانوا يركضون في طرقات المدن هاربين، لم أشاهدها كصورة لانكسار عسكري فحسب، بل كانت علامة لتبدل المعادلة التي حكمت سوريا بعد عقود من الاستبداد. لقد سألت نفسي كصحفي، هل أصفُ الوجوه التي بانت عليها ملامح الهزيمة، أم أقرؤها كرمز لانتهاء حقبة الخوف؟ تأكدت من أنّ الصورة لا تهمني بقدر دلالتها، فالهروب ما كان مجرّد نهاية الجنود، إنما نهاية سردية بشكل كامل لسلطة مطلقة لم تعد قائمة، فهي شهادة مزدوجة، توثيق لحدث آني وإشارة لتحول رمزي تاريخي، ففي لحظات الانهيار الكبرى لا تكون مهمة الصحافة التقاط الصورة الخام، بل بالكشف عن معناها وتركها معلقة في ذاكرة الناس للإعلان عن بداية صفحة جديدة ضمن تاريخ جديد.

في لحظات الانهيار الكبرى لا تكون مهمة الصحافة التقاط الصورة الخام، بل بالكشف عن معناها وتركها معلقة في ذاكرة الناس للإعلان عن بداية صفحة جديدة ضمن تاريخ جديد (تصوير: محمد ديب).

# كيف ننقذ قصص الهجرة من الغرق؟

كارلوس زوروتوزا

ترجمة: إيمان أبو حية

**اعتاد الجمهور على مشاهد غرق المهاجرين غير النظاميين إلى درجة أنها لم تعد تحدث التأثير والتعاطف. كيف يمكن إبقاء قضية الهجرة حية؟ وماهي زوايا المعالجة المبتكرة التي تؤنسن المهاجرين؟**

في آب/ أغسطس 2020، كان سطح سفينة الإنقاذ الإنسانية «أوبن آرمز» مكتظا بأكثر من 300 شخص أُنقِذوا قبالة السواحل الليبية. وبينما كان هؤلاء يحاولون التعافي من رحلة كلفت الكثيرين حياتهم، كنت أراقب المشهد متسائلا: كيف يمكن أن أواصل سرد هذه القصة بطريقة تدفع الناس لقراءتها؟ بصفتي صحفيا مستقلا، عليّ أن أستحوذ على انتباه المحررين الذين غالبا ما يعتمد قرارهم -بالموافقة أو الرفض- على ما نسمّيه اليوم الطُعم الرقمي.

لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق؛ فقبل تلك المهمة في عام 2020، غطّيت العديد من المهمات المماثلة، وشهدتُ -من بين عدة أمور أخرى- كيف تراجع الاهتمام بقصص الهجرة بشكل مطّرد وحتمي، منذ تلك الرحلات الأولى في عام 2015.

الثابت أن القصص الجديدة تحفز النقرات. لذلك، وبعد مرور خمس سنوات على انطلاق تلك المبادرة الجريئة، كان أوضح عناصر الجذب في التغطية أنها جرت في خضم جائحة عالمية، في وقتٍ كان فيه العالم لا يزال ينتظر اللقاحات الأولى. وكان التباعد الاجتماعي بين 300 شخص على سطح لا يتجاوز طوله 35 مترا مجرد خيال.

ومع ذلك، لم يكن هذا التناقض كافيا لجعل القصة مثيرة للاهتمام؛ فقد أصبح الجمهور العالمي شبه مخدَّر أمام هذه الصور إلى درجة أنه لم يعد يلتفت إلى ضحايا حوادث الغرق الجدد في مياه أفريقيا. وكانت الفكرة السائدة في ذهن القارئ: «لقد قرأت هذه القصة من قبل، وأعرف كيف تنتهي» ذلك القارئ الذي نفقده باستمرار في دوّامة تدفّق المعلومات الهائل.

إلى جانب وسائل الإعلام الصغيرة التي دعمت عملي لسنوات، كانت القصة التي فتحت لي الباب أمام جمهور أوسع تدور حول نجّار من غانا يصنع توابيت غريبة، وصودف أنه كان على متن تلك السفينة. كانت تلك التوابيت تُنحت على شكل أسماك ضخمة أو سيارات أجرة أو حتى أقلام بحسب مهنة المتوفى، وهو ما جعل القصة غير مألوفة بل مشوقة بما يكفي لإثارة بعض الفضول.

لكن كان لا بد أن يتغيّر مسار السرد؛ إذ وجب أن يتراجع العنصر الدرامي إلى الخلف قليلًا لنصل إلى القرّاء الذين يبحثون عن قراءة صباحية هادئة. كان اسمه ستيفن دونكو، يسافر حاملاً مجموعة من الصور التي تُبرز أعماله على أمل أن يجذب زبائن جدد.

وبينما كانت الصور تنتقل من يد إلى أخرى بين الركاب الذين كانوا يتأملونها بدهشة، أصبح هو الخيط الناظم للقصة والشخصية المحورية فيها. ورغم أن كل المهاجرين على سطح السفينة عايشوا تجربة صادمة، وشارك بعضهم بعضا المحطةَ الأخيرة من رحلتهم على متن السفينة الإنسانية، إلا أن قصة ستيفن بما تحمله من طابع درامي وتفرّد تدعو إلى التعاطف، وتمنح أزمة الهجرة بعدا إنسانيًا؛ لأن أنسنة القصة هنا تعني تذكير الجمهور بأننا لا نتحدث عن كتلة بشرية بلا ملامح، ولا عن قطعان تُنقل من مكانٍ إلى آخر، بل عن أفراد لكلٍّ منهم مأساته الخاصة وأحلامه التي يحملها معه.

في وقت سابق، كنت قد غطّيتُ كابوس عبور البحر المتوسط، وغالبا ما كانت الرحلات تنطلق من ليبيا؛ فمنذ زمن طويل كانت تلك البلاد الواقعة في شمال أفريقيا منطقة انطلاق لكثير من القوارب المطاطية المزدحمة. وغالبا ما كانت صورة الوضع في ليبيا يُعاد تركيبها من السواحل الشمالية، عبر أصوات الذين نجحوا في الوصول إلى أوروبا.

> **أنسنة القصة هنا تعني تذكير الجمهور بأننا لا نتحدث عن كتلة بشرية بلا ملامح، ولا عن قطعان تنقل من مكانٍ إلى آخر، بل عن أفراد لكل منهم مأساته الخاصة وأحلامه التي يحملها معه.**

وكانت المحصلة أن هذه الشهادات تركت انطباعا لدى المتابعين بأن الليبيين - في مجملهم - أناس قُساة يسيئون معاملة المهاجرين ولهم سجل قاتم من الانتهاكات يشمل التعذيب والاستعباد والاغتصاب المنهجي. والحقيقة أنه لا يمكن إنكار ذلك، لقد حدثت تلك الأمور فعلا، ولكن كم نسبة من ارتكبوها من مجموع السكان؟ وماذا نعرف عن الليبيين العاديين الذين حاولوا المساعدة؟ ومن الذي يروي حكاية أولئك الذين فتحوا بيوتهم للمهاجرين؟ وماذا عن أولئك الذين أمضوا أوقات فراغهم في دفن الموتى ساعين للحفاظ على كرامتهم؛ كما فعل صادق جيّاش الذي كان عاملا في بلدية المدين؟ ومرة أخرى، كان لا بد من منح أسماء ووجوه للجانب الآخر من القصة، لأولئك الليبيين الذين لم يذكرهم

أحد، أولئك الأبطال المجهولون من سائقي الأجرة والموسيقيين وطلّاب الحقوق والمحامين. ماذا كنت سأفعل لو استيقظت مدينتي الساحلية ذات صباح لتجد البحر قد جرف إلى شواطئها عشرات الجثث؟ هل كنت سأواصل حياتي كالمعتاد، وأنا أعلم أن جاري يتاجر بالبشر؟ كان عليّ أن أخاطب ضمير القارئ لأجعله يتعاطف مع أشخاص لم يفكّر يومًا في أنهم جزءٌ من قصة الهجرة. ومن خلال وصف حياتهم اليومية على الضفة الجنوبية للمتوسط، تمكن القرّاء من رؤية الأزمة من منظور مختلف.

**كان عليّ أن أخاطب ضمير القارئ لأجعله يتعاطف مع أشخاص لم يفكّر يومًا في أنهم جزءٌ من قصة الهجرة. ومن خلال وصف حياتهم اليومية على الضفة الجنوبية للمتوسط، تمكن القرّاء من رؤية الأزمة من منظور مختلف.**

غير أن الضفة الجنوبية ليست البوابة الوحيدة إلى أوروبا؛ ففي آب/ أغسطس 2021، بدأت الحكومة البيلاروسية بتوجيه تدفّق المهاجرين - ومعظمهم من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - نحو حدود بولندا ولاتفيا وليتوانيا. وعلى مدى أشهر، سهّلت بيلاروسيا إصدار التأشيرات القصيرة الأمد، فسافر كثيرٌ من المهاجرين إلى مينسك عاصمة البلاد، ليُقتادوا بعدها إلى الحدود البولندية. وأشارت تقارير عدّة إلى أن جنودًا بيلاروسيين ساعدوا بعض المهاجرين على عبور السياج إلى داخل بولندا، غير أن العشرات منهم قضَوا على الطريق؛ وذلك غالبًا بسبب البرد القارس.

وقد حاز هذا النوع من القصص على اهتمام وسائل الإعلام لفترة وجيزة مجددا، قبل أن يتسلل الفتور وتتلاشى العناوين تدريجيا. وقد أدّى الجدار الذي شيّدته بولندا لاحقًا إلى إبطاء تدفّق المهاجرين، لكن عدد الضحايا لم يكن كافيًا لإعادة تسليط الضوء على هذه الزاوية من أوروبا.

وبحثًا عن زاوية جديدة للسرد، اكتشفتُ أن المجتمع المحلي القريب من موقع الجدار يحتضن جماعة تاريخية لافتة في بولندا: إنهم «التتار الليبكيون» الذين استقرّوا هناك منذ أكثر من خمسمئة عام، ويُعدّون من أقدم الجماعات المسلمة النشطة في أوروبا.

لقد وجدت أن سُبل عيشهم تعتمد على الزراعة والسياحة المحلية؛ إذ يقصدهم البولنديون للاستمتاع بالمشاهد الخضراء الكثيفة من الغابات والبحيرات، ولزيارة أقدم مسجدين في البلاد شُيّدا على نحو لافت قبل قرنين من الزمن على يد معماريين يهود. لكن التوترات الحدودية وإجراءات الحجر الصحي التي فرضتها الحكومة البولندية كانت تختبر قدرة المجتمع على الصمود. في تلك الاثناء، كانت جينيتا بوغدانوفيتش - وهي امرأة تتارية أنشأت مجمّعًا صغيرًا يضمّ مطعمًا وغرفًا للنزلاء ومتحفًا مخصّصًا لقومها - تراقب انهيار نموذج عملها بعدما توقّف الزوّار عن القدوم.

ستيفن دونكوه تم إنقاذه مع 113 مهاجرا في سبتمبر/أيلول عام 2020 (تصوير: كارلوس زوروتوزا).

دزينيتا بوغدانوفيتش، سيدة بولندية تبلغ من العمر 60 عاما، تعمل في مجال الفندقة وتنحدر من منطقة بودلاسيا في بولندا (تصوير: غيلاد سادي).

لكن المسألة لم تكن يومًا عن جينيتا وحدها، تمامًا كما لم تكن عن النجار أو عامل البلدية فقط. فكلٌّ من هؤلاء الأفراد يمنح اسمًا ووجهًا لمجموعةٍ بأكملها داخل سردٍ أوسع بكثير. إنهم قطعٌ في أحجيةٍ أكبر تُدعى «الهجرة غير النظامية»، قصةٌ لا تكتمل إلا حين نصل هذه القطع ببعضها. وإذا اختصرناها إلى حكاياتٍ معزولة فلن يبقى منها سوى تدوينةٍ عابرة أو هامشٍ في الأسفل؛ لأن الصحافة الحقيقيةً تتطلّب سياقًا، كما أنها تقتضي أن نضع هذه القصص الشخصية إلى جانب رؤى الخبراء، وأعمال المنظمات غير الحكومية المعنية بحقوق الإنسان، وجهود الهيئات العاملة في قضايا الهجرة، بالإضافة إلى أنها تتطلب - عند الحاجة - المعلومات الصادرة عن المصادر الرسمية، وبهذه الطريقة فقط ننتقل بالرؤية من سياقها المحلي إلى العالمي.

> **إن المهاجرين قطعٌ في أحجيةٍ أكبر تُدعى «الهجرة غير النظامية»، قصةٌ لا تكتمل إلا حين نصل هذه القطع ببعضها. وإذا اختصرناها إلى حكاياتٍ معزولة فلن يبقى منها سوى تدوينة عابرة أو هامشٍ في الأسفل؛ لأن الصحافة الحقيقية تتطلّب سياقا.**

في المقابل، قبل أن نغمر المتابعين بأرقام جامدة أو بيانات صحفية صادرة عن مؤسسات رسمية، علينا أن نباغتهم ونأخذهم إلى الحدث عبر طريقٍ لم يسلكوه من قبل.

عبارة «سأروي لكم هذه القصة من زاويةٍ جديدة» هي الفكرة التي ينبغي أن تبقى في ذهن الكاتب وهو يخطّ الفقرة الأولى؛ فالقصة القوية هي التي تبني جسرا من التعاطف بين القارئ والأشخاص الذين نكتب عنهم. وهذا سيجعل جمهورنا يواصل القراءة حتى النهاية، وعندها فقط سيكون لديهم ما يحتاجون إليه لتكوين رأيهم الخاص حول قضيةٍ بهذا التعقيد.

مع الأسف، هناك طرقٌ كثيرة لسرد قصة حول الهجرة غير النظامية؛ لأننا نعلم بالفعل أن واقعها الحقيقي يفوق دائمًا كل ما يمكننا تخيّله عنها. وبمجرد أن ندرك من أين نرى المشهد، لا يبقى سوى أن نستمر في رواية القصة.

# صحفي أم محلل؟

همام كدر

**المسافة بين الصحافة والتحليل الرياضي دقيقة جدا، حقلان يلتقيان في تقديم المعلومات للجمهور، ويختلفان في الأدوات والمعارف. ما هي الحدود بينهما؟ ولماذا على الصحفيين الالتزام بمعايير مهنة الصحافة قبل اللجوء إلى التحليل؟**

ظل هذا السؤال هاجسا لاحقني طيلة عملي الصحفي، أو لنقل بقي في حقيبتي الصحفية إلى جانب أدواتي التي كانت تتغير باستمرار. كُنا في دورة تدريبية لتمكين الصحفيين الشباب حين طرحه علينا الدكتور أديب خضور، أستاذ الإعلام ولم يكن يقصد به – وقتها - اختصاصاً معيناً كالرياضة، بل جاء سؤاله شاملا لكل الاختصاصات تقريباً: تريدُ أن تكون «محللاً اقتصادياً؟ أم صحفياً مُختصاً؟» وكذلك بالنسبة للرياضة، والسياسة، والثقافة وغيرها... لكن بما أنني كنتُ قد حدّدتُ اختياري المهني منذ سنواتي الأولى، فقد كانت الرياضة مجالي الصحفي. كنتُ دائمًا أضعها معيارًا لموضوعي، غير أنني كثيرًا ما أتساءل: هل أتجاوز بذلك دور الصحفي لأقترب من منطقة المحلل؟ أم أنني ببساطة أجيب عن أسئلة يفترض أن يجيب عنها المحللون؟

أجبتُ بعفوية وسرعة: «صحفي» وكان ذلك عهداً سألتزم به في مسيرتي الصحفية رغم إغواء التحليل، ومعرفتي القليلة به، لأني مارستُ كرة القدم كهاوٍ مثل سائر أبناء جيلي ومدينتي، وعِشتُ متعة البحث عن الأسباب والمعطيات وقراءة أفكار المدربين واللاعبين، تلك التي تَنتجُ تلقائياً بسبب الكم الهائل من الخبرات المتراكمة جراء حضور الأحداث الرياضية الكبرى وتغطيتها سواء في الواقع أو خلف الشاشات. وأيضاً بسبب الاحتكاك مع المدربين واللاعبين وجماهير كرة القدم التي يتفوق بعضها في فهم اللعبة وتحليلها أحياناً على بعض المُختصين الميدانيين في الملاعب. كما أن هذه الخبرة تغذت بقراءات كتب السيرة الذاتية للمدربين التي أعدها صحفيون أو ممن عايشوا معهم لحظاتهم المهنية مثل كتاب «PEP» الذي يحكي عن الموسم الأول للمدرب الإسباني غوارديولا مع الفريق الألماني بايرن ميونيخ للصحفي مارتي بيرارناو، وعرفت منه كيف استخدم المدرب الكتالوني الشهير لاعبه الأسطوري ميسي في مركز جديد مع برشلونة عندما كانا معاً ضمن الحقبة الذهبية للنادي (2009-2012).

كان عليَ أن أقاوم إغواء كل تلك المعارف التي لا تتوقف عن التدفق وتلح على المرء لكي يذهب بها إلى تقديم فيديوهات تحلل الأداء، ولكن ذلك ليس من اختصاصي... أريد أن أبقى صحفياً رياضياً ولكن لن يضرني أبداً الاستماع لمدرب يصرخ على لاعبين بين شوطي المباراة أو يتحدث بهدوء الواثق في المحاضرة النظرية – التكتيكية قبل ساعات من لقاء كروي هام.

هذا بالفعل ما حدث معي نتيجة معايشتي لفريق الكرامة السوري أحد فريقي مدينتي حمص، أثناء خوضه موسماً تاريخياً في دوري أبطال آسيا سنة 2006 حين وصل إلى النهائي وخسر بفارق هدف واحد سُجل بأرضه أمام تشونبوك الكوري الجنوبي.

كنتُ أدخل غرف تبديل الملابس بإذن رسمي من المدرب، مع تنبيهي ألا أصوّر وألا أكتب ما أراه بشكل لحظي، ولكن ذلك كان ينطبع في مخيلتي ويساعدني على فهم تحركات لاعبي المدرب الوطني محمد قويض، ومن اللاعب المنضبط تكتيكياً بشكل كبير، ومن الذي لم ينفذ تعليمات مدربه بدقة، دون أن أسمح لنفسي بالخوض في المسائل التحليلية الفنية؛ لأن ذلك من اختصاص من خاضوا اللعبة لسنوات وراكموا مئات المباريات في رصيدهم المحلي والدولي... وكانوا يجلسون في السدة الرئيسية ليدعموا ناديهم السابق، مع التأكيد أن هؤلاء أيضاً بحاجة لبعض الدورات الإعلامية لالتقاط أدوات أساسية من المهنة مثل التعامل مع الشاشة واستخدام المصطلحات التي يجيد فهمها مباشرةً متتبعو اللعبة.

في المؤتمر الصحفي، وعلى الرغم من أن المدرب يَطلقُ عليَّ لقب «ابن النادي» بسبب ميولي التشجيعية التي يعرفها، إلا أنه واحتراماً لمهنتي ووسيلتي الإعلامية التي أعمل لها آنذاك عام 2009 وكان اسمها جريدة «الرياضة»، كانت أسئلتي حيادية للغاية رغم أن بعضها كان ينم عن ميزة صغيرة تظهر أني سمعت حديثه بين الشوطين ولكن ذلك كان مُبرراً على الأقل من وجهة نظري، لأني كنت من القلائل الذين يطلبون ذلك، ولا أعرف سواي طلب الدخول وجوبه طلبه بالرفض.

> **كان عليَ أن أقاوم إغواء كل تلك المعارف التي لا تتوقف عن التدفق وتلح على المرء لكي يذهب بها إلى تقديم فيديوهات تحلل الأداء، ولكن ذلك ليس من اختصاصي.. أريد أن أبقى صحفيا رياضيا.**

وكنت أصادف مراسلين لبعض المنتديات الخاصة بالأندية، فكانوا أحياناً يطرحون أسئلة بطابع تأنيبي أو تحليلي صرف، وأحياناً يكيلون المديح بشكل مفرط كما

يطغى الرأي الشخصي المباشر على بعض من أسئلتهم.. بالنسبة لي كان ذلك خطأ أحمر.

## «في السياسة كما في الرياضة»

لطالما حذّرنا رؤساء التحرير ومديرو الأخبار من استخدام أي تعبير يشير إلى رأينا في القضايا التي نغطيها. ففي المدرسة الصحفية الرصينة، لا يحق للصحفي أن يُظهر وجهة نظره، وليس من اللائق أن تكون حديث التخرج أو في بداية الطريق وتقدّم نفسك ككاتب رأي.

**لطالما حذّرنا رؤساء التحرير ومديرو الأخبار من استخدام أي تعبير يشير إلى رأينا في القضايا التي نغطيها. ففي المدرسة الصحفية الرصينة، لا يحق للصحفي أن يُظهر وجهة نظره، وليس من اللائق أن تكون حديث التخرج أو في بداية الطريق وتقدّم نفسك ككاتب رأي.**

الكلام ينطبق على الصحفي الرياضي بشدة أيضاً، فتغطية المباراة، أو المؤتمر الصحفي، يجب أن تتصف بالحياد تترك فيها للمشاهد أو القارئ الحكم من خلال سردك للأحداث وإيرادك للأرقام والحقائق، لا من خلال رأيك الشخصي.

لكن على منصات وسائل التواصل الاجتماعي انتشرت ظاهرة المحلل الكروي بشكل كبير، فلم تعد الخطوط الفاصلة بين الصحفي والمحلل واضحة، وبات الخلط بين التغطية والرأي معتاداً ويحدث بلا وعي من مقدم المحتوى الرياضي. فهو يقول – مثلا - إن البرازيل خسرت بنتيجة 7-1 في نصف نهائي كأس العالم 2014 ثم يعلم بالورقة والقلم ويشرح لماذا خسرت؟ وما هي نقاط ضعفها التي أدت لواحدة

تغطية المباراة، أو المؤتمر الصحفي، يجب أن تتصف بالحياد تترك فيها للمشاهد أو القارئ الحكم من خلال سردك للأحداث وإيرادك للأرقام والحقائق، لا من خلال رأيك الشخصي (تصوير: بيتر لوس - غيتي).

من أكثر هزائم البرازيل فداحة عبر تاريخها، وربما قدم بعض النصائح للمدرب سكولاري في ذلك الوقت.

من خلال اهتمامي بالإحصاءات والأرقام، وحتى وإن امتلكت رؤى فنية حول أسباب الخسارة، عليّ أن أظل وفيًّا لإجابتي السابقة أمام الدكتور خضور: «أريد أن أكون صحفيا».
لذلك، ستتركز كتاباتي حول ظروف الخسارة وأثرها على الجماهير، مع طرح الأسئلة والإشارات حول مدى تأثير غياب نيمار حينها على أداء منتخب السامبا، وتقديم إحصاءات دقيقة لكل لاعب، خصوصاً في خط الدفاع وحراسة المرمى، تاركاً لذوي الخبرة في كرة القدم — من لاعبين ومدربين ومحللين — مهمة تفسير الأسباب المباشرة من وجهة نظرهم.

**سألت الأستاذ أيمن جادة بعد ذلك الحفل عندما عاد للدوحة عن انطباعاته وشعوره أثناء التقديم فقال: إنه مع شريكه في تلك الأمسية بتوقيت البرازيل وخلال رحلتهما الطويلة من الدوحة إلى ريو، أعادا ما كانا قد شرعا في تحضيره قبل أسبوع، وتخيّلا عدة سيناريوهات للتقديم. لكن الأهم أن أياً منهما لم ينطق بكلمة تعبّر عن رأي شخصي مباشر أو انطباع.**

هل سيكون من السليم والمنطقي أن أبسط رأيي بصفتي صحفيا حول هذه الخسارة أمام أي نجم كروي مصري واجه البرازيل عندما شارك مع منتخب الفراعنة في كأس القارات وخسروا بصعوبة في مباراة مشهورة (انتهت المباراة 4-3). قد يقدم اللاعب أو المدرب سراً صغيراً أو معلومة فنية من هذه المباراة تساوي مئات التحليلات التي قد أصف بها ما جرى.

ما أريد قوله إن مهمتنا بوصفنا صحفيين، ليست تحليل المباراة ولا الخوض في الشأن الخططي والتكتيكي بل وحتى في حال كنت صحفياً في الميدان، حول الملعب قبل المباراة وفي المدينة التي ستقام فيها المباراة النهائية لدوري أبطال أوروبا مثلاً، ننتظر منك أن تتحدث عما لم يره المتفرج، عن تلك الإشارات التي التقطتها من ثقة أهل المدينة بأن هذا الفريق هو الأوفر حظًا. وعن انطباعاتك غير المباشرة حول التدريب الأخير لفريق بايرن ميونيخ، وكيف كان مدربهم البلجيكي فينسنت كومباني يتعامل مع اللاعبين بصرامة لافتة، متسائلاً: هل لتلك القسوة دلالات معينة؟ وهل يمكن أن يكون لها انعكاس سلبي على أداء الفريق في أرض الملعب؟ مثلما فعل مراسل بي إن سبورتس، نسيم طالبي في باريس، (1) فعند استقبال أبطال دوري أوروبا العائدين من ميونيخ متوجين بأول لقب لهم في أمجد الكؤوس، تكلم طالبي في مداخلته بمهنية عالية عن مسار حافلة الأبطال في جادة شانزيليزيه، وتحدث عن التعزيزات الأمنية المرافقة، وأين وقف الأنصار ونوعية ومحتوى القمصان التي طبعت بوجه خاص للاحتفال وتوقف حركة المرور في الجادات المجاورة، إضافة للطائرات المروحية التي سترافق الأبطال ولم يتطرق لأي كلمة فنية عن أسباب فوز الفريق مثلاً وعوامل نجاحه في الملعب بل عن الحدث الذي كان يغطيه.

وثمة مثال آخر يبرز هذه المسافة بين الرأي والصحافة، للزميل إبراهيم خضر مراسل قنوات بي إن سبورتس، (2) في العاصمة الأرجنتينية بيونس آيريس، حين تحدث لبرنامج هذا المساء بمناسبة وفاة الأسطورة دييغو مارادونا، فنقل بوضوح ما ستفعله الرئاسة الأرجنتينية؛ أين سينتقل موكب الجثمان ودخول الأرجنتينيين إلى القصر الجمهوري لأول مرة منذ سنوات، وما يمثله مارادونا للأرجنتين خاصة أنه ثاني شخصية ستؤبن القصر الرئاسي، وما فعله الرئيس الذي ألغى برنامجه، مشيرا إلى عدد الأرجنتينيين المجتمعين في أبرز ساحة بالعاصمة، وأنها ليست المنطقة الوحيدة بل منطقة لابوكا أيضاً وما يمثل ذلك بالنسبة لبدايات وجذور دييغو، ولم يتحدث عن قيمة مارادونا الفنية وتاريخه... بل من أين بدأ وما هو تأثير ذلك على الأرجنتينيين وما قالته الصحافة بهذه المناسبة التاريخية.

أتذكر جيدا حفل افتتاح أولمبياد ريو 2016، ورغم أنه أقيم في الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت مكة المكرمة، فقد سهرت متابعا بكل حواسي، لا لانبهاري فقط باللوحات المبهرة التي زينت أرضية ملعب ماراكانا، التي جسدت تاريخ البرازيل الغني والمتنوع، بل أيضا لما قدمه الأستاذان أيمن جادة ومحمد حمادة خلال نحو أربع ساعات من وصف وتحليل عميقين.

فقد قدما تغطية جمعت بين الإحاطة الدقيقة بما يراه المشاهد، والخلفية التاريخية والجغرافية والمعرفية للبرازيل، بوصفها دولة بحجم قارة، وللأمم والشعوب التي مثلتها الوفود المشاركة، إلى جانب استحضارهما تاريخ الألعاب الأولمبية العريق المليء بالقصص الممتدة في عمق الزمن.

إن مهمتنا بوصفنا صحفيين، ليست تحليل المباراة ولا الخوض في الشأن الخططي والتكتيكي، بل أن تتحدث عما لم يره المتفرج، عن الإشارات غير المباشرة من الميدان (تصوير: كاثرين ستينكيستي - غيتي)..

سألت الأستاذ أيمن جادة بعد ذلك الحفل عندما عاد للدوحة عن انطباعاته وشعوره أثناء التقديم فقال: إنه مع شريكه في تلك الأمسية بتوقيت البرازيل وخلال رحلتهما الطويلة من الدوحة إلى ريو، أعادا ما كانا قد شرعا في تحضيره قبل أسبوع، وتخيّلا عدة سيناريوهات للتقديم. لكن الأهم أن أياً منهما لم ينطق بكلمة تعبّر عن رأي شخصي مباشر أو انطباع. كان درساً جديداً لي في الإعلام كيف أتحاشى أي مفردة رأي مباشر وأبقى وفيا لإجابتي لأستاذي.

وفيما يتعلق بقراءة البيانات والأرقام والحقائق، فهي تختلف تماماً عن تحليلها والاستفادة منها في الميدان، ذلك أنه بصفتنا صحفيين، يمكننا القراءة والتعليق والتعمّق ومحاولة فهم ما يفكر به المدرب، ولكن لن نصبح محللي أداء لأن هذا اختصاص ميداني مختلف يتطلب مساراً تخصصياً مشبعا بالعمل الميداني بين اللاعبين ومشاهدة مقاطع الفيديو ومباريات كرة القدم ودارسة الحقائق وتعلم مقارنتها بين اللاعبين. مسار دراسي - مهني على حد سواء، ولا يجب أن يكون هذا هدفنا.

الحديث بالأرقام عن بيدري، كشف عن توقعات فنية عالية ولكنه لم يعط أي رأي مباشر عن طريقة لعبه وأسلوبه.

وهنا يمكن الإشارة إلى مثال من برنامج «أرقام» (3) على شاشة بي إن سبورتس الإخبارية الذي يتناول المباريات من منظور إحصائي بحت. ففي أحد المقاطع، كان الحديث عن بيدري، نجم خط وسط برشلونة الإسباني، ومقارنته المتكررة مع إنييستا وتشافي، أسطوري الفريق السابقين، خاصة في بداية مسيرته الاحترافية مع الفريق الأول. لم نطرح أي رأي فني في التحليل، بل اكتفينا بعرض الأرقام والبيانات التي تظهر ما قدّمه اللاعب الملقب بـ الكناري في مواسمه الأولى مقارنة بما قدمه النجمان السابقان في العمر نفسه.

وينطبق الكلام على عشرات الأمثلة الأخرى فيمكن الحديث عن فعالية إيرلينغ هالاند بالتسجيل بقدمه اليسرى مقارنة باليمنى وقوة حراس المرمى باللعب بأقدامهم وكل ذلك من خلال ما نورده من أرقام.

يمكن ببساطة أن نختصر دور الصحفي بقول الشيء والمحلل في تحليل الشيء، ولكن يبقى اللعب في المناطق المختلطة مغرياً للجميع على أمل أن يغذي الصحفي مساره بالتمكين حتى تكفيه المهنة بذاتها.

## المراجع


1) https://www.instagram.com/reel/DKXHBkCylAc

2) https://www.youtube.com/watch?v=TqGVTa_ETq0

3) https://www.youtube.com/watch?v=XBjvT_beupU&list=PLczz3UIGL1XpGn2O_qwcCG3jq1Z3YVlc9&index=2

# كيف ولدت حركة الصحافة السرديّة في الصحافة الأمريكية؟

محمد زيدان

يستعرض المقال السياق الذي نشأت فيه الصحافة السردية في الولايات المتحدة منذ مقالة جون هيرسي «هيروشيما» في أربعينات القرن العشرين، وصولا إلى الصحافة «الجديدة» مع توم وولف وغاي تاليس وجوان ديديون، وكيف أسهم تبني وسائل الإعلام لهذا النمط من الصحافة في صعودها ونضوجها وترسّخ تقاليد معروفة لها في الصنعة الصحفية.

«الـربّ وحـده يعلـم، كـم أنّ هـذه الصحـف مُضجـرة، مضجـرة، مضجـرة، حتـى أنّ علينـا نحـن أن ندفـع للنـاس لكـي يقرؤونـا».. سـتيورات ديـم، صحفـي ومحـرّر أمريكـي، في محاضرة لـه في مؤتمـر للمحرريـن عـام 1977.

الحـروب ولّادة لأشـكال جديـدة مـن الصحافـة؛ فحيـن بلغـت الحـرب العالميـة الثانيـة ذروتهـا الكبـرى، بإلقـاء الولايـات المتحـدة قنبلـة ذريّـة على هيروشـيما وناغازاكـي التـي قتلـت زهاء ربـع مليـون إنسـان، عرفت الصحافـة العالميـة وقتهـا نمطًـا مـن الصحافـة السـردية المطوّلـة، ولـدت ناضجـة وشـبه مكتملـة عبـر مقالـة «جـون هيرسـي» الشـهيرة: «هيروشـيما» التـي نشـرت وحدَهـا في عـدد كامـل مـن مجلّـة نيويوركـر، في أغسـطس 1946.

لكـن هيروشـيما أحيلـت على التقاعـد وانضمـت رغـم فظاعتها الصادمـة دومًا إلـى قائمـة أحـداث تاريخيـة مرعبـة وقعـت وانقضـت، ولـم تعـد حتّـى في ذكراهـا السـنويّة تحظـى بمـا تنالـه أحـداث أخـرى في تلـك الحـرب مـن التغطيـة والتذكّـر والتمحيـص. وحتـى في منتصـف القـرن الماضـي، وبعـده في وسـط التسـعينات إبـان صعـود القضيـة الفلسـطينية على أجنـدة الأخبـار العالميـة، جـرت عمليّـات تذكّـر واسـترجاع انتقائيـة لأحـداث في الحـرب العالميـة الثانيـة، بـدتْ وكأنّهـا حملـةُ منظّمـة، لجعـل مـا حصـل لجماعـة معيّنـة مـن الضحايـا، «ذكـرى عالميّـة.. ترشـدنا إلـى أن سـموم التفـوق العرقـي كامنـة في كلّ أمّـة»، بحسـب مـا يشـير إيلان بابيـه في كتابـه «فكرة إسـرائيل» وأنّ الـردّ «العـادل الوحيـد» لما جـرى هـو منـح دولـة اسـتيطان اسـتعماريّ مثـل إسـرائيل، الحـقّ المطلـق في إبـادة شـعب آخـر وحرقـه. (1)

مـع ذلـك، ظلـت الحـرب العالميـة الثانيـة فاتحـةً لنمـط جديـد مـن الكتابـة في الصحافـة الغربيـة. ففـي الولايـات المتحـدة بعـد جون هيرسـي ستشـتهر كتابـات جوزيـف ميتشـيل، خاصـة في جنـس البروفايـل السـردي عـن الأشـخاص والأماكـن، وأعمـال جيمـس آغـي التـي ركّـز فيهـا على توثيـق حيـاة المزارعيـن وتأثرهـم بالبرامـج الاقتصاديـة التـي أطلقهـا الرئيـس فرانكليـن روزفلـت، إضافـة إلـى المقـالات الصحفيـة لإيرنـي بايـل وتوثيقـه لتجارب الجنـود العاديين في الجبهـة، وأعمـال غـاي تاليـس، وخاصة مقالـه الشـهير «فرانـك سـانيترا يعانـي مـن نزلـة بـرد»، المنشـور عـام 1966 في مجلـة «إسـكوايز»، فـضلًا عـن أعمـال تـوم وولـف وجيمـي بريسـلين وبيـت هاميـل وجـوان ديديـون وغيرهـم لاحقًـا.

وبيـن السـبعينات والتسـعينات مـن القـرن العشـرين بـرزت تلـك الجماعـة مـن الصحفييـن الذيـن راحـوا ينقلـون الأخبـار كمـا لـو أنّهـم ينسـجون قصصًا ويسـردونها، وتغيـرت بسـبب أعمالهم الجريئـة وأسـلوبهم اللافـت حالـةُ الصحافـة نفسـها وتوقعـات الجمهـور منهـا، كمـا يذكـر توماس آر شـميدت أسـتاذ الصحافـة والإعلام في جامعـة كاليفورنيـا في كتابـه «حركـة السـرد في الصحافـة الأمريكيـة المطبوعـة». فقـد تراجعـت مـع تلـك الموجـة مـن الصحافـة السـرديّة هيمنـة «الهـرم المقلـوب» على التفكيـر الصحفـي، كمـا انكفـأت هيمنـة «الموضوعيـة» كخيـار إسـتراتيجيّ «مُعلـن» في الصحافـة الأمريكيـة حينهـا، وتوسّـعَ - في المقابـل - الهامـش المتـاح تحريريًـا؛ لتوظيـف التقنيـات السـردية، وتحويـل المصـادر إلـى شـخصيات، والأحـداث وتفاصيلهـا إلـى عُقـد ضمـنَ بنـىً سـرديّة صحفيـة، وذلـكَ في تقاطـع جـريء بيـن الصحافـة والأدب وبيـنَ الصحافـة والأنثروبولوجيا (2).

**ظلت الحرب العالمية الثانية فاتحةً لنمط جديد من الكتابة في الصحافة الغربية. ففي الولايات المتحدة بعد جون هيرسي ستشتهر كتابات جوزيف ميتشيل، خاصة في جنس البروفايل السردي عن الأشخاص والأماكن، وأعمال جيمس آغي التي ركّز فيها على توثيق حياة المزارعين وتأثرهم بالبرامج الاقتصادية التي أطلقها الرئيس فرانكلين روزفلت.**

وبحسـب شـميدت، فـإنّ ذلـك لـم يكن تغييـرًا في الأسـلوب وحسـب، بـل تحـوّلًا في الجوهـر، وتبـدّلًا في فهـم الصحفـي والمؤسسـات الصحفيـة لمعنـى الأخبـار وللطـرق الممكنـة لنقلهـا.

لقـد تزامنـت هـذه النقلـة نحـو الصحافـة السـردية مـع تحـوّلات في ثقافـة المجتمـع أسـفرت عـن إعـادة تخيّـل لـدور الصحافـة. فالتغيّـر حيـن يحصـل في الصحافـة يعكـس معـه طبيعـة ونطـاق التحـوّل الحاصـل في المجتمـع وفي خصوصياتـه السياسـية والاجتماعيـة، كمـا يعكـس - حسـب مـا يـرى شـميدت - «طريقـة تشـكّل النقـاش العـام» في ذلـك المجتمـع (3). لكـن ذلـك مرتبـط أيضًـا وبشـكل وثيـق بالتوقّعـات المعلّقـة على الصحافـة، وبالخيـارات المتاحـة لـدى الصحفييـن أنفسـهم للمنـاورة والتغييـر والتجريـب، ضمـن إمكاناتهـم وقدراتهـم وتكوينهم، ومجمـل البيئـة التـي يعملـون بهـا.

ففـي لحظـة التحـوّل إلـى الصحافـة السـرديّة، كان الصحفيـون في بلـد كالولايـات المتحـدة يعملـون ضمـنَ بيئـة أدبيـة شـديدة النشـاط، تمـوج بالحركـة والفاعليـة، وتشـهد صعـودًا

لأسماء مؤثرة في الصنعة الأدبية غير منفصلين عن الصحافة، مثل فيليب روث، وجون أبدايك وتوني موريسون، وجيمس بالدوين وغيرهم. وبسبب من هذا المناخ الأدبي، والاعتراف المتزايد بدور الأدب في إعادة تشكيل وعي المجتمع بشأن الموضوعات والقضايا المختلفة، وجد الصحفيون فرصة سانحة، للاستفادة من الأدوات التي يتيحها الأدب؛ من أجل إنتاج صحافة جديدة، قريبة من الأدب، لكنّها تحافظ في الوقت ذاته على الصفات الأساسية اللصيقة بالصحافة، كالاعتماد على الحقائق والمصادر، والتزام معايير مهنيّة مستقرّة لا تقوم الصحافة بدونها.

**بين السبعينات والتسعينات من القرن العشرين برزت تلك الجماعة من الصحفيين الذين راحوا ينقلون الأخبار كما لو أنّهم ينسجون قصصًا ويسردونها، وتغيرت بسبب أعمالهم الجريئة وأسلوبهم اللافت حالةُ الصحافة نفسها وتوقعات الجمهور منها، كما يذكر توماس آر شميدت أستاذ الصحافة والإعلام في جامعة كاليفورنيا في كتابه «حركة السرد في الصحافة الأمريكية المطبوعة».**

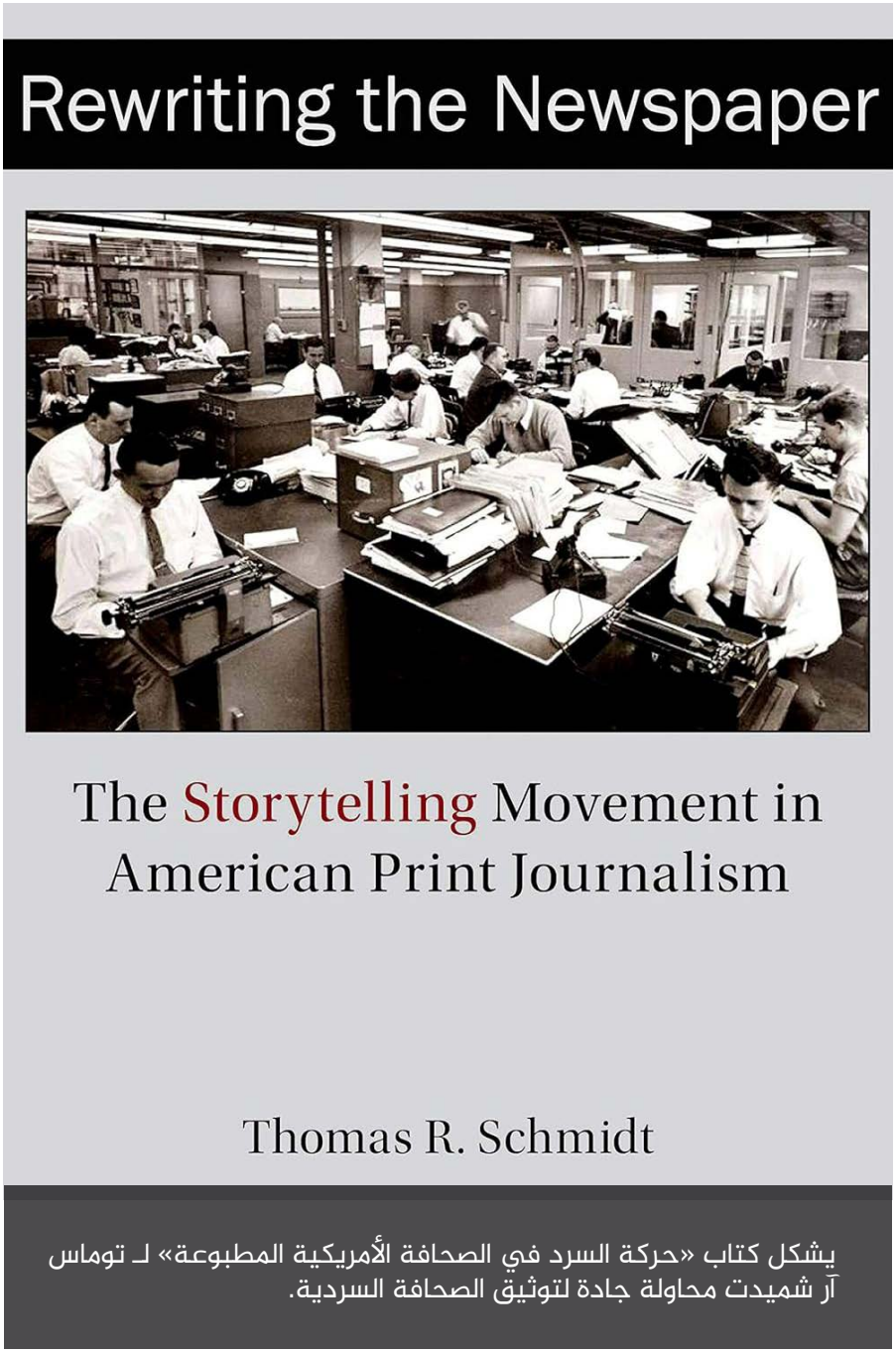


يشكل كتاب «حركة السرد في الصحافة الأمريكية المطبوعة» لـ توماس آر شميدت محاولة جادة لتوثيق الصحافة السردية.

في كتاب شميدت، نعثر على تفسيرات منهجية من هذا النمط لفهم نشأة الصحافة السردية، وعلاقتها مع الكتابة الأدبية «غير الخيالية» (nonfiction) التي برزت فيها أسماء لامعة لصحفيين أصلًا تحوّلوا إلى مؤلّفين محترفين يكتبون أدبًا حول قضايا وظواهر معقّدة في المجتمع بأساليب وأدوات متشابكة مع التاريخ والفلسفة والتحليل النفسي والاقتصاد وعلم الاجتماع، ومع الأدب (4). ففي أعمال جيمي بريسلن مثلًا، سيفهم القارئ مجتمع الجريمة في مدينة مثل نيويورك، على نحو لا يمكن للأدب منفردًا ولا للصحافة وحدها، القيام به. لكن الرجل جمع بين أفضل ما يتيحه الحقلان من أدوات، ومزج بينهما في عمل مثل «العصابة التي لا تحسن إطلاق الرصاص» الذي وثق فيه قصة حياة جوزيف غالو أحد زعماء المافيا في بروكلين في منتصف القرن العشرين. وفي المقالات التي احتوتها صفحات مجلات وصحف مثل نيويوركر وإسكواير وواشنطن بوست وغيرها

مئات من الأمثلة وعشرات من الأسماء التي أسهمت في بناء هذا الشكل الكتابي وترسيخ قواعده، بعد اكتشافهم تلك «الطاقة» التي تتيحها هذه الكتابة التي لا تعترف كثيرًا بالتفريق المصطنع بين الأدب والصحافة.(5) ثم إنّ هذا النوع الصحفي كما يوضح شميدت في الكتاب، لم يقدّم بالضرورة دائمًا فهمًا أفضل للواقع، ولكنّه نجح على الأقل في معظم الأحيان في تقديم فهم «مختلف» عنه، يتجاوز ما تفرزه التغطيات التقليدية التي تقدمها التقارير الإخبارية.

ففي الصحافة السردية، يتّسع المجال للكاتب لكي يعرض المادة الخام (المتمثلة في الحقائق وسياقها) بأسلوب يحسن استثمار الأدوات الكتابية الأدبية، ويتكئ على التقنيات الإثنوغرافية في جمع المعلومات والأخبار والحديث مع المصادر ومعايشتهم، ثم تقديم هذه التقارير المؤنسنة من داخل المؤسسات الصحفية العريقة نفسها، وهو ما سمح بجعلها «الشكل المفضل للحديث عن الوقائع» في المجتمع، وتكريس هذا الشكل من الكتابة الصحفية باعتبارها «مُنتجًا اجتماعيًا»، تصبح الصحافة فيه «شكلًا اجتماعيًا محددًا، ونمطًا متفردًا من الوعي، وطريقة فريدة في مقاربة التجربة الاجتماعية. (6)

فالعامل الحاسم في هذه التجربة، هو التبنّي المؤسّسي لهذا النمط الصحفي واختراق فلسفته لغرف الأخبار إلى أن تغيّر روتين عملها واختلفت طريقة تعاطيها مع الأخبار. وفق شميدت، كان لصحيفة واشنطن بوست دور رائد في ذلك، وتحديدًا عبر محررها بين برادلي الذي أطلق قسمًا جديدًا يستوعب هذا النمط من الكتابة الصحفية، وحقق في ذلك نجاحًا كبيرًا.

> **في كتاب شميدت، نعثر على تفسيرات منهجية من هذا النمط لفهم نشأة الصحافة السردية، وعلاقتها مع الكتابة الأدبية «غير الخيالية» التي برزت فيها أسماء لامعة لصحفيين أصلًا تحوّلوا إلى مؤلّفين محترفين يكتبون أدبًا حول قضايا وظواهر معقّدة في المجتمع بأساليب وأدوات متشابكة مع التاريخ والفلسفة والتحليل النفسي والاقتصاد وعلم الاجتماع.**

يخبرنا الكتاب عن مأزق عانت منه الصحافة الأمريكية مطلع الستينات، تمثّل بما أسماه «خمول الابتكار»، وضعف قدرة المحررين في الصحف على الإتيان بجديد على مستوى الحرفة بعد انقضاء عقدين على الحرب العالمية الثانية. في ذلك السياق، يوضّح شميدت كيف أن توقعات الجمهور الأمريكي من الصحافة أيضًا قد تغيرت، خاصة مع تحسن الرفاه الاقتصادي وما رافقه من أنماط جديدة في استهلاك الثقافة والترفيه، خاصة بين فئة من الشباب الذين ولدوا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ولم يشهدوها، والذين يشار إليهم عادة بجيل «طفرة المواليد» (baby boomers). في هذا السياق، يوضّح الكاتب أنّ ثمة جيلًا جديدًا مؤثرًا يصعب إغراؤه بالمادة الصحفية القديمة نفسها، وأن له أذواقًا جديدة تختلف عن الجيل القديم الذي اعتادت الصحافة مخاطبته. (7) يبدو المشهد آنذاك شبيهًا بالوضع الحاصل مع ما يشار إليه باسم جيل «تيكتوك» في الآونة الأخيرة الذي لا يعرف استهلاك الأخبار إلا عبر هذه المنصّة، ويضع ضغوطًا كبيرة على غرف الأخبار لابتكار أنماط جديدة من المحتوى تتلاءم مع احتياجاتهم. المأزق الآخر الذي واجهته الصحف حينها، ومن بينها واشنطن بوست هو أن التزايد في حجم توزيع الصحف لا يتناسب مع حجم الزيادة السكانية الحاصل، خاصة مع دخول التلفزيون منافسًا للصحف في الستينات التي سحبت قسمًا لا بأس به من الجمهور عن متابعة الصحف، ولا سيما فيما يخص الأخبار الكبرى (مثل اغتيال كنيدي أو الحرب في فيتنام).

خلقت تلك الظروف أزمة حقيقية كادت تودي بواشنطن بوست. فثمة منافسون لها على مستوى الولاية، وثمة على المستوى الوطني تتربّع نيويورك تايمز باعتبارها الصحيفة الأهمّ والأكثر توزيعا ونجاحًا. لكن برادلي الذي تولى التحرير في واشنطن بوست منذ عام 1965، وجد في تلك الظروف نفسها فرصة سانحة، ورأى أنّ صمود الصحيفة لن يتحقق إلا بابتكار حلٍّ لا تستطيع الإتيان بمثله الصحف الأصغر في المدينة، لضعف إمكاناتها، ولا الصحف الأكبر مثل نيويورك تايمز، لشدّة القيود المؤسسية الراسخة فيها. ذلك الحلّ تمثل في منح الكاتب مساحاتٍ أكبر لأدواته وأسلوبه وصوته وموضوعاته، والعمل على جذب الأقلام الماهرة من حقول قريبة من الصحافة، للكتابة بهذا الأسلوب الجديد. وهكذا تحوّلت الواشنطن بوست إلى «صحيفة كُتّاب»؛ أي يبرز فيها الكاتب واسمه وأسلوبه وثيماته الخاصة، في مقابل صحفٍ أخرى ظلّت بحسب شميدت، «صحفَ محرّرين»، مثل نيويورك تايمز، أي تُعنى بالحفاظ على خطّ وصوت موضوعي للصحيفة نفسها لا لكتّابها.

كان الهدف في الواشنطن بوست، هو جعل النقاشات العامّة في الصحافة أكثر حيوية، وأكثر شفافية، وأكثر قربًا من المجتمع، على أن تكون في الوقت ذاته ممتعة ومثيرة للاهتمام ومختلفة (تصوير: كيفن كاتر - غيتي).

ولقد تمكّن برادلي بالفعل من تحقيق نجاح باهر، انطلاقًا من تلك القناعة المدروسة، بأن إغراء الأجيال الجديدة لقراءة الصحيفة وتفضيلها على غيرها، لن يتحقق إلا عبر أسلوب جديد ومنعش وحيويّ في الصحافة يتسم بالتمرّد، ويتفلّت من «الوقار» المحافظ الذي تلتزم به الصحافة التقليدية (8) لكن من دون أن يعني ذلك بالضرورة التضحية بقاعدة القراء الذين اعتادوا على قراءة الصحيفة. فبرادلي، ومعه مساعده ديفيد لافينتول، لاحظا بدقّة تلك الثورة في «المتعة» و«الرفاه» في المجتمع من حولهم، وقررا استيعابه في الصحافة. وبهذا المعنى، أتت الصحافة السردية الجديدة لتكون هي «صحافة المتعة»، وكان التحدّي هو الحفاظ على جدّيتها ورصانتها، وعدم جعلها صحافة صفراء. لقد ظلّ الهدف في الواشنطن بوست، هو جعل النقاشات العامّة في الصحافة أكثر حيوية، وأكثر شفافية، وأكثر قربًا من المجتمع، على أن تكون في الوقت ذاته ممتعة ومثيرة للاهتمام ومختلفة. وكان ذلك يعني إحداث «انشقاق» عن نمط سائد في الصحافة، والاعتماد على كتّاب جيدين من أجل الدفع بهذا الشكل الجديد وضمان نجاحه.

سيذكر شميدت في كتابه نماذج ممتازة من بعض الأعمال الأولى في القسم الجديد للصحيفة الذي تبنى هذا النمط من الكتابة. ويذكر مثلاً قصة عن حاكم جديد في ولاية ماريلاند، يدعى مارفن ماندل، استخدمت نمطًا سرديًا غير مسبوق في الصحيفة، يجمع بين السرد والتوثيق في تقرير إخباري يومي، وتبدأ على النحو الآتي:

«عند السادسة والنصف صباحًا، ينهض مارفن ماندل عن سريره المزدوج، ويذهب إلى الحمام تحت الدرج. حمّام صغير، بسيراميك أزرق اللون فاتح. عبر ثقوب صغيرة لكأس معدنية تتدلى مقابض ثلاث فرش أسنان، وخلف ستارة بلاستيكية خفيفة يختفي حوض الاستحمام. في خزانة الأدوية الأنيقة علبة شامبو «بريل»، ورغوة حلاقة، وموضع لشفرات حلاقة قديمة، وثلاث أو أربع عبوات أو صناديق صغيرة أخرى، ليس بينها أي علبة دواء، ولا حتى حبة أسبرين واحدة»...

> **يخبرنا الكتاب عن مأزق عانت منه الصحافة الأمريكية مطلع الستينات، تمثّل بما أسماه «خمول الابتكار»، وضعف قدرة المحررين في الصحف على الإتيان بجديد على مستوى الحرفة بعد انقضاء عقدين على الحرب العالمية الثانية.**

يؤكّد شميدت عبر كتابه على أهمّية الرؤية المؤسسية في صعود هذا النمط الصحفي واستقراره وتنامي أثره داخل الولايات المتحدة وخارجها، سواء عبر تبنيه من طرف الإدارات التحريرية، أو عبر الاحتفاء العام به من داخل الصنعة الصحفية وعلى أطرافها، سواء في الجوائز التي باتت مخصصة لهذا النمط من الكتابة، أو في اهتمام الناشرين في جمع أعمال أبرز الكتّاب وإعادة نشرها، بل وفي تخصيص أنطولوجيات سنويّة تجمع أهمّ الأعمال الصحفية السرديّة (مثل سلسلة America's Best Newspaper Writing)، وتدشين

السَّرد
في الصحافة
معهد
الجزيرة للإعلام
إعداد محمد أحداد
كتاب السرد في الصحافة ينتمي لمشروع معهد الجزيرة للإعلام للاهتمام
بتطوير السرد الصحفي في العالم العربي.

مؤتمرات سنوية حول الكتابة السردية غير الخيالية، أي الصحفية، في كلّ من جامعة بوسطن وجامعة هارفرد، فضلًا عن تفجر المشهد بورش الكتابة وتعليمها، وتدشين أقسام بأكملها للكتابة الإبداعية الروائية وغير الروائية، (9) وهي حالة لا تزال في السياق العربيّ في مهدها، رغم الحاجة الماسّة والمتجدّدة إليها.

A REPORTER AT LARGE

# HIROSHIMA

## *I-A NOISELESS FLASH*

**By John Hersey**

August 24, 1946

A hundred thousand people were killed by the atomic bomb. Survivors wonder why they lived when so many others died. Photograph from Rolls Press / Popperfoto / Getty

عرفت الصحافة العالمية وقتها نمطًا من الصحافة السردية المطوّلة، ولدت ناضجة وشبه مكتملة عبر مقالة «جون هيرسي» الشهيرة: «هيروشيما» التي نشرت وحدَها في عدد كامل من مجلّة نيويوركر، في أغسطس 1946.

## المراجع


(1) إيلان بابيه، فكرة إسرائيل، تاريخ السلطة والمعرفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص[104

(2)، The Storytelling Movement in American Print Journalism, pg3

(3) The Literary Journalists, Norman Sims, pg2

(4) نفس المصدر، صفحة 4

(5) The Storytelling Movement in American Print Journalism, pg7

(6) نفس المصدر، صفحة 16

(7) نفس المصدر، صفحة 18، وصفحة 21.

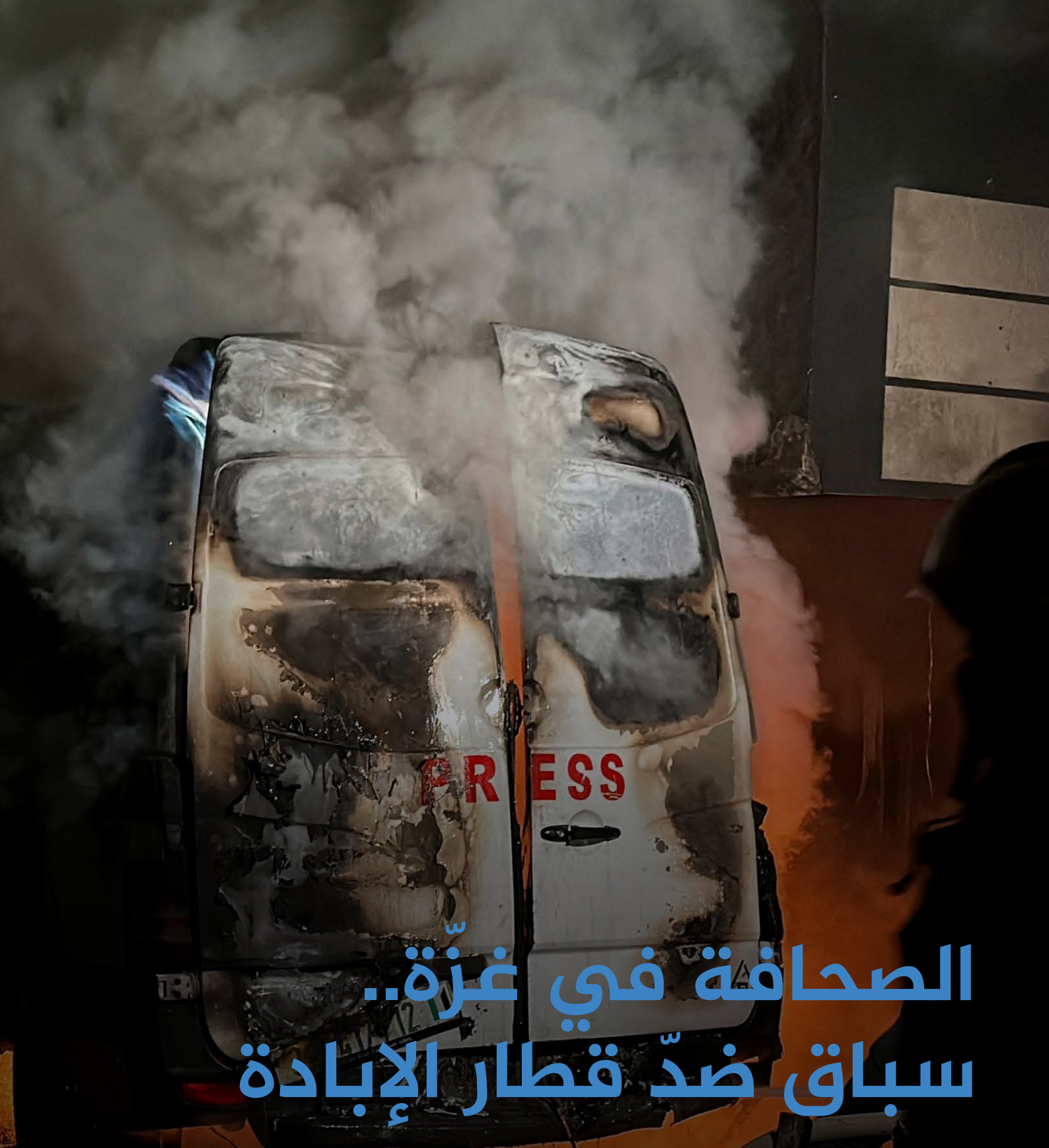


# الصحافة في غزّة.. سباق ضدّ قطار الإبادة

أميرة نصَّار

تستمر مجلة الصحافة في مشروعها التوثيقي لشهادات الصحفيين في فلسطين وفي قطاع غزة الذي تعرض لحرب الإبادة الجماعية، وفي الشهادة التالية لأميرة نصار نعثر على تفاصيل دقيقة، وحوارات شخصية، وصراعات لا تنتهي حول الجدوى من الكتابة في زمن القتل والجوع. إنها شهادة ضد النسيان، وضد قطار الإبادة.

لم تكن تجربةً واحدةً. إنها عدة تجارب بولادات أنجبتْ نفسها في روح واحدة، صارعتْ من أجل البقاء وإبقاء كلمات وصوت وصور الضحايا مسموعة ومرئية في أحداث أكتوبرية مفاجئة قلبت الحياة رأسًا على عقب، لكن رغم قساوتها وضراوتها وإنسانيتها لم يحمل أحدُ عبء تغطيتها سوانا نحن أبناءها؛ فعيوننا ودماؤنا رحلت وترحل إليها، كما ترحل عنها ومنها على مدار الساعة، تنفطر القلوب حزناً على ما آلت إليه حرب غزَّة. ما المعنى في تصدّرها قائمة الموضوعات الأكثر بحثًا عبر محرك البحث؟ ما الفائدة؟

لا شيء.

بعد 700 يوم من الحرب، ما تزال الإبادة على أشدّها.

تجربة أنجبت نفسها أهوال حرب الإبادة التي اجتاحت شمال غزَّة منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023 شلّت قلمي وصوتي وعدستي عن العمل بعد أيام معدودة من بدايتها. رائحة الموت كانت تملأ المدينة من شمالها إلى جنوبها بينما ظل الرعب يحرق هدوء سمائها. الطائرات الحربية الإسرائيلية شنت سلسلة من الهجمات الشرسة بالأحزمة النارية فارتجت جدران المنزل وتزلزلت الأرض من تحت أقدامي وارتعشت يداي. سجّلت عيناي وأذناي ما كانت تفعله قذائف المدفعية بأصواتها المرعبة وشظاياها الفتاكة التي تقصّ حتى شجرة الزيتون وتقتطع ما تبقّى من طمأنينة روحي.

أينما وجهت وجهي لا أرى سوى الدماء والأجساد المتفحمة أو الأشلاء التي تطايرت وانتثرت على سطوح المنازل وعلى قارعة الطرق. تختلط مع تلك المناظر رائحة البارود والغبار والأدخنة المختلفة. لم أجد ملاذًا من هول ذلك الرعب إلا جدارا إسمنتيا متصدعا للاحتماء به من تلك النيران التي تصر على إبادة ذكريات وملامح بيوتنا وحاراتنا وأزقتنا، ذكريات طفولتنا وعلاقتنا مع المكان. كلها محاولات لاقتلاع الإنسان ومتعلقاته المادية والنفسية من هنا. لم نكن نبالغ حين قلنا إننا كنا ننظر إلى بعضنا منتظرين القذيفة التالية التي ستضربنا في العتمة الدامسة والدائمة. والموت لا يكون مُدويّاً وسط انقطاع الكهرباء والإنترنت والاتصالات؛ ذلك موت بلا ضجيج، حتى نادرًا ما يصل منصات التواصل الاجتماعي ووسائل الأنباء. تقطع عنا إسرائيل سبل الاتصال، تنفينا مؤقتًا كأننا في كوكب مختلف، أو وحدنا على هذه الأرض قبل أن تنزل الضربة التالية فنموت، وكأننا لم نكن أصلًا.

بعد أشهر من العدوان، جاء إلينا الموت بحلّة أخرى: جوع قاتل يقضي على الروح ويفتك بقدرتها قبل أن يقضي على الجسد. عشتُ المجاعة عدّة أشهر، حتى كسرة الخبز القمحي اليابس اختفت. حملت حقيبة ظهر سوداء فيها بعض الحاجيات الصغيرة والأوراق الثبوتية وشهادة التخرج من الجامعة وكثير من الألم والحسرة. رحلت نازحة من شرق المدينة إلى غربها. أنا صحفية، شعرت بنظرات الناس من حولي وكأنهم ينتظرون مني أن أفعل شيئًا ما يبطّئ من وتيرة هذا الموت، يحميّ من حتمية العقاب الجماعي. لم أستطع فعل شيء، ظلت الرسائل التهديدية تتوالى؛ فكثير من الصحفيين والصحفيات استُهدفوا وقُتلوا، أو تلقوا تهديدات مباشرة. لم يبق إلا أمر الاحتلال بالانتقال إلى الجنوب، وتحت النيران والموت الذي يلاحقنا، بدأت رحلة النزوح المؤلمة.

> **أينما وجهت وجهي لا أرى سوى الدماء والأجساد المتفحمة أو الأشلاء التي تطايرت وانتثرت على سطوح المنازل وعلى قارعة الطرق. تختلط مع تلك المناظر رائحة البارود والغبار والأدخنة المختلفة. لم أجد ملاذًا من هول ذلك الرعب إلا جدارا إسمنتيا متصدعا للاحتماء به من تلك النيران التي تصر على إبادة ذكريات وملامح بيوتنا وحاراتنا وأزقتنا.**

## المكافأة إقصاء!

مُنذ اللحظات الأولى لحرب الإبادة، دفنتُ رأسي بين كتفي على سرير غرفتي، أمسكت بقلم الفلوماستر الأسود، وخططت به على قصاصة من ورق هذه الجملة: «لَنْ ينجو من هذه الحرب أحد». لم يكن ذلك مجرّد تشاؤم، بل حدس صحفية عاشت حروبًا إسرائيلية متكررة، وعرف أن الضربة التي تلقّاها الاحتلال في عمق أراضينا المحتلة ستتبعها بطشة عمياء. لم يكن هناك فارق بين صحفي يرتدي خوذة ودرعًا منقوشًا عليها كلمة Press أو طفل أو امرأة أو شيخ. حتى الحيوانات، وحتى الجمادات التي ننتفع بها طالها العنف الإسرائيلي. الجميع خاسر في

هـذه الحـرب، مهمـا اختلفـت الأشـكال والألـوان والأحجـام. سـيظهر لاحقًـا أن الـدرع الصحفـي يجلـب أشـكالًا كثيـرة مـن المـوت في غـزّة، لصاحـب الـدرع وربمـا لأهلـه وأصحابـه وكل مـن حوله.

بعـد أيـام قليلـة، وصلنـي مـا يشـبه «مكافـأة نهايـة الخدمـة الصحفيـة»: إقصـاء قسـري عـن حسـاباتي في المنصـات الرقميـة. انقطـاع الكهربـاء والإنترنـت فصلنـي تمامًـا عـن الفِـرَق التـي كنـت أكتـب وأعلّـق عبرهـا. هاتفـي وحاسـوبي المحمـول سـرعان مـا انطفـآ بعـد أن نفـدت بطارياتهمـا، وكأنهمـا يشـاركانني الشـعور نفسـه: العجـز أمـام قسـوة الأحـداث المتلاحقـة التـي لـم تتـرك لنـا فرصـة لالتقـاط الأنفـاس، فـضلًا عـن أداء العمـل الصحفـي كمـا يلـزم في هـذه الظـروف. كان هـذا أول وأسـرع شـكل مـن اسـتهداف العمـل الصحفـي فيَ غـزّة ومحاولـة إسـكاته.

**مُنذ اللحظات الأولى لحرب الإبادة، دفنتُ رأسي بين كتفي على سرير غرفتي، أمسكت بقلم الفلوماستر الأسود، وخططت به على قصاصة من ورق هذه الجملة: «لَنْ ينجو من هذه الحرب أحد».**

لـم أقـوَ على متابعـة الأخبـار أو التواصـل مـع أي مـن المنصـات الإعلاميـة التـي كنـت أتعـاون معهـا بالقطعـة. (1) كنـت أكتفـي بتسـجيل الأفـكار في أوراق مبعثـرة، ومعايشـة تلـك اللحظـات الفاصلـة، وهـي الأقسـى في ذاكرتـي مقارنـةً بـكل الحـروب السـابقة على غـزة. كنـت مؤمنـة أن الكتابـة غيـر ممكنـة والـروح مضطربة. سـألت نفسـي مـرارًا: كيـف أكتـب بقلـبٍ يرتجـف خوفًـا؟ هـل أخـرج في مهمّـة صحفيـة ولا أعـود أبـدًا؟ أم أعـود لأصعـق بفقـدان عائلتـي، كمـا صُعقـتُ بخبر استشـهاد زملائـي وزميلاتـي؟

بلغ عدد الشهداء الصحفيين 256 صحفيًا منذ بدء الحرب في 7 أكتوبر 2023 حسب آخر إحصائية عن المركز الإعلامي الحكومي بغزة (تصوير: دعاء الباز - غيتي).

هل تتخيلون ما حصل؟ أن يكون المرء صحفيًا وينقطع عن العالم لأشهر بسبب الحصار، ثم يصله الخبر تلو الخبر بأن زملاءه وزميلاته في هذا السلك الصحفي ممن عرفهم على مقاعد الدراسة أو عمل إلى جانبهم طويلًا في الميدان، قد سقطوا شهداء!

هبة نصار، نور الحطاب، دعاء شرف، هيا مرتجى، إسلام مقداد، علا عطا الله، آيات خضورة، إيمان الشنطي، سلام ميمة، إيمان العقيلي، دعاء شرف، شيماء الجزار، علا عطا الله، دعاء الجبور، حنان عيّاد، نرمين قواس، آلاء الهمص، آمنة حميد، وفاء العديني...

**هل تتخيلون ما حصل؟ أن يكون المرء صحفيًا وينقطع عن العالم لأشهر بسبب الحصار، ثم يصله الخبر تلو الخبر بأن زملاءه وزميلاته في هذا السلك الصحفي ممن عرفهم على مقاعد الدراسة أو عمل إلى جانبهم طويلًا في الميدان، قد سقطوا شهداء!**

بعضهن استشهدن مع عائلاتهن، وبعضهن تركن ناجيًا وحيدًا يذكّرني كل مرة بوالدته التي لم يُتح لي وداعها. بعضهن لا قبر لهن أصلًا، فما زالت أجسادهن تحت الركام.

قتل الاحتلال الإسرائيلي روح وقلم وصوت وعدسة عشرات الصحفيات. كثير منهن شاركتُهن المكاتب والأحلام؛ أحلام الاستمرار في التغطية والعمل، وأحلام النجاة وخطط الحياة ما بعد الحرب. لكن الحرب طالت، والاحتلال لم يترك لي سوى البكاء، والدعاء لهن بالرحمة.

## العودة إلى العمل

هل انتهت فرصتي في الصحافة؟

بعد عام كامل من العيش تحت ويلات الحرب ومحاولة التكيف مع أعبائها وويلاتها، بدأتُ أطرح هذا السؤال على نفسي المعذبة بما تراه وتسمعه وتعيشه يوميًا: وجوه الضحايا في الشارع، في المستشفى، في السوق، في طوابير التكايا والمياه. لم يتركوا لي حتى فرصة أن أشاركهم أسئلتهم، لكني كنت أستطيع أن أواسيهم بالكلمة والابتسامة. كنت أخشى أن أستأذنهم في رفع هاتفي لالتقاط صورة تجسد ما يضيء حياتهم رغم الخراب: الأمل الصغير الذي يُبقيهم على قيد الحياة.

الكلمات هي قلب الخبر والقصة. والكتابة - بالنسبة لي - كانت دائمًا أصدق وسيلة للتفريغ عن هذا الواقع الثقيل. لذلك بعد انقطاع دام عامًا وشهرين قررت أن أعود إليها في ديسمبر/ كانون الأول، الشهر الذي يُعرف بأنه شهر الأفول وانتهاء الأحلام. لكنني قررت أن أعيد إحياء حلمي القديم؛ الحلم الذي اخترته منذ نعومة أظافري، حين كنت أقف أمام المرآة ممسكةً فرشاة الشعر كميكروفون ألقي نشرة الأخبار على عائلتي الصغيرة.

عادت إليّ هذه الذكرى بعد عشرين عامًا، وأنا أنظر إلى حقيبة الطوارئ السوداء الموضوعة بجانب باب البيت. لم يكن سهلًا أن أفرغها، أو أن أضع فيها حاسوبي المحمول استعدادًا للخروج. منزلنا يقع على شارع صلاح الدين، النقطة الأقرب إلى محور نتساريم (2) الذي لا يهدأ ليلًا ولا نهارًا: تمشيط، قذائف، تحركات دبابات. وفوق كل ذلك تحوم «الزنانة» (3) في السماء، تستوطن رؤوسنا، تفسد ليلنا ونهارنا بصوتها الطنان الذي لا ينقطع.

على إيقاع ذلك الطنين المرعب، قطعت مسافة ساعة كاملة مشيًا على الأقدام، أبحث عن مكان أتزوّد منه بالكهرباء والإنترنت، حتى لو تطلّب الأمر أن أدفع أضعاف التكلفة. تخيلت أن ساعة واحدة فقط من الاتصال بالإنترنت قد تساعدني على أن أتنفس مجددًا، وأن أشعر بحياتي ووجودي.

بتثاقل أَوصلت المقبس بالكهرباء وبتردد ضغطت على زر التشغيل. خشيت أن تكون شاشة اللابتوب قد تحطمت أو احترقت، بسبب احتراق الطابق الأول من بيتنا وتحوله إلى سحابة دخانية سوداء بعد أن كان يزهو بلون أبيض كريمي. آثار العنجهية الإسرائيلية ما تزال حاضرة على جدرانه المتصدعة. مع ذلك المشهد، استعاد ذهني طيف المكتب وصورة أستوديو التسجيل بمعداته المحترقة المتفحمة التي لم ينج منها شيء أبدًا.

بتردد فتحت الإنترنت من تلك الشبكة الضعيفة المتوفرة، وبدأت أرسل رسائل إلكترونية لمؤسسات صحفية تعلن حاجتها إلى مراسلين في شمال غزة. استعنت ببعض العناوين التي زودتني بها صديقتي الصحفية دعاء شاهين. كتبت رسائل افتتاحية قصيرة، أعرّف فيها بنفسي، بمكاني، وبأعمالي المكتوبة والمسموعة والرقمية؛

عرضت على كثيرين خبرتي وبعض ما حصلته وجربته خلال عشر سنوات من العمل الصحفي.

لكن الردود كانت غريبة، بعضها جاء في صيغة اعتذار ودعاء بالسلامة والثبات، أو الثناء على «الصمود» في غزّة خلال الحرب! بعضها الآخر وعد بالنظر في طلبي لاحقًا. وأحيانًا كان الجواب أنهم مكتفون بالصحفيين الموجودين أصلًا في شمال غزة.

> **الردود كانت غريبة، بعضها جاء في صيغة اعتذار ودعاء بالسلامة والثبات، أو الثناء على «الصمود» في غزّة خلال الحرب!**

أجلدُ ذاتي في تلك اللحظة. دموعي تنساب على وجنتي ببطء. أتمتم في سري كلمات كدت أصرخ بها من أعمق نقطة في روحي:

لمن سأكتب؟ وما جدوى الكتابة؟ وما معنى الصحافة والاستعداد للمخاطرة إذا كان المقابل هو الاعتذار والرفض أو الدعوات البعيدة، في حرب إسرائيلية شعواء يلزم لتغطيتها وتوثيق جرائمها جيش من الصحفيين والصحفيات؟

أعود إلى البيت مثقلة بالخذلان، أتساءل إن كنت سأواصل أم أن هذه الردود ستكون «القشة التي قصمت ظهر البعير». لكن فجأة، يسطع ضوء صغير عبر مجموعة واتساب للصحفيات الفلسطينيات:

إعلان عن إعادة فتح باب الاستكتاب في «شبكة نوى» التابعة لمؤسسة «فلسطينيات» الإعلامية النسوية. أمسكت بهذا الخبر كما يمسك الغريق بخشبة نجاة. اعتبرته إشارة ربانية تدعوني للمواصلة، للعودة إلى الميدان، والبحث مجددًا عن الضحايا، للاستماع إلى حكاياتهم التي لم يسمعها أحد، ولإضاءة معاناتهم وآمالهم المخفية وسط هذا الركام.

## وصايا الوداع!

أرسلتُ أول فكرة تقرير صحفي إلى شبكة «نوى» عن المحاصرين في حيّ الزيتون (4) منذ ثلاثة أشهر، فحظيت بالقبول. بدأت العمل عليها، وخطوتُ أولى خطواتي إلى الحيّ كاسرةً جمود اللحظة والخوف معًا.

هناك التقيت فتاة عشرينية اتخذت مع عائلتها من مطبخ متصدع الجدران مأوى آمنًا من ضربات الاحتلال. قالت والدتها وهي تجلس بجانبي: «لا أمان في الحيّ، ولا أحد يستطيع دخوله لا نهارًا ولا ليلًا. كل ليلة يرتب بعضنا وصايانا لبعض في العتمة، ثم ننقش أسماءنا على أذرع الأطفال، حتى لا نفترق عنهم. ولو كنا محظوظين، لانتشلونا من تحت الركام ولم تنهشنا الكلاب المسعورة.»

لم أقاطعها بأسئلة إضافية. اكتفيت بالاستماع، أترك لهم المجال ليفرغوا ما يثقل صدورهم، وليرسموا بأنفسهم صورة الحياة المحاصرة. انتهت المقابلة، لكن لم ينته حلمنا المشترك بوقفٍ دائمٍ لإطلاق النار.

أغلقتُ جهاز التسجيل قبل مغادرتي البيت الذي قرر أهله البقاء صامدين. رفضوا تكرار خطأ أجدادهم الذين رُحّلوا قسرًا من أراضيهم. اختاروا الموت في بيوتهم على النزوح جنوبًا. خرجتُ هائمة على وجهي، أحمل كلماتهم الثقيلة: إصابات لا تجد من يسعفها، جرحى لا تصل إليهم سوى عربات الكارو. (5)

هذا هو حال المدينة المحاصرة منذ عشرين عامًا. ثم جاءت الإبادة، لتقضي على ما تبقى من حياتها، وتختطف أنفاس أبنائها الأخيرة.

## ما بين الألم والأمل

أواصل البحث عن القصص الإنسانية. أقف قرب غرفة العناية المكثفة في المستشفى الأهلي العربي (المعمداني)، (6) المشفى الوحيد الذي كان يعمل في شمال غزة. هناك اصطدمت بقصة أربعة عشر ناجيًا نُقلوا دفعة واحدة بعد أن تناولوا قطعة جبن تركها جنود الاحتلال في منزلهم، ليتبين أنها لم تكن سوى مادة C-4 المتفجرة.(7) أنجزت القصة وشارفت على إرسالها إلى الشبكة، لكن اتصالًا قلب الموازين. كانت الزوجة على الخط، تخبرني أنها غيّرت رأيها؛ زوجها ما زال في العناية المكثفة، وهي تخشى على عائلتها من بطش الاحتلال. طلبت أن تُنشر القصة باسم مستعار. أصغيتُ إليها بهدوء وقلت: «لو كان لدى جنود الاحتلال ذرة إنسانية لخجلوا مما فعلوه بزوجك وأسرتك وبنا جميعًا.» بعد لحظة صمت، اقتنعت، ودفعتني لأن أكتب القصة باسم زوجها، وذكرت والده الذي استشهد في سجن سدي تيمان، (8) من دون أن يحظى حتى بالدفن أو الوداع الأخير.

في تلك اللحظة، لم أكن صحفية تبحث فقط عن المعلومة، بل كنت

وثقت نقابة الصحفيين الفلسطينيين (في تقرير صادر يوم خمسة أكتوبر 2025) تدمير إسرائيل لأكثر من 150 مكتبًا ومؤسسة إعلامية بشكل كلي أو جزئي (تصوير: عبدالله العطار - غيتي).

أمارس دورًا آخر: نزع الخوف من قلب الضحية، حتى لا يبقى صوتها حبيس الصمت الذي يريده الاحتلال. الاحتلال سرق منهم البيت والعمل والصحة، ويريد أن يسرق الصوت أيضًا.

بعد إنجاز القصة، كافأت نفسي بقطعة شوكولاتة داكنة خبأتها طويلًا. أكلتها ببطء، أستمتع بندرتها كما لو أنها أثمن ما في العالم. في زمن عزّ فيه أن تحصل على لقمة طحين من دون أن يتقطر دمك في الطريق. في ذلك الوقت ارتكب الاحتلال مجزرة دوار النابلسي، (9) حيث اختلط الطحين بدماء الجائعين. وأسأل نفسي: كيف استقبلتهم الملائكة؟ هل لوّحت لهم برغيف خبز ساخن؟ لم أكتف بالقصص والتقارير عن الإبادة والضحايا. أضفت إليها صورًا وسردًا لمنصة UntoldPalestine (فلسطين غير المحكية)، بين الفن والموسيقى والقطط النازحة التي لجأت إلى بيت الخالة أم بشير.

بعض هذه الصور عُلّق في معرض «غزة حبيبتي» الدولي، الذي جاب بازل بسويسرا وهيوستن بالولايات المتحدة. لكن من حضر تلك المعارض لم يعرف أن الصور التُقطت في شارع يسميه الناس شارع الموت؛ هناك تطلق الكوادكابتر قنابلها وتفتح رشاشاتها على المارة.

كم مرة اختبأت منها حتى غادرت! وكم مرة في ذلك الشارع رفعت قدمي عن دماء الشهداء، متجنبة أن أدوسها بحذائي.

## يسبقني الصحفيون

ندرك نحن الصحفيات والصحفيين «الغزازوة» - الأحياء منا والشهداء - بأن أعمارنا التي عشناها أكبر من عُمر هذه الحرب المسعورة التي ارتقى فيها أكثر من 248 صحفيًا، وأصيب أكثر من 400 آخرين، بعضهم بإعاقات دائمة. فيما اعتقل 48 صحفيًا على الأقل، من بينهم

الزمـيلان نضـال الوحيـدي وهيثـم عبـد الواحـد، اللـذان تعرضـا للإخفـاء القسـري وواجهـا التعذيـب.

كمـا اسـتهدف الاحـتلال 143 مؤسسـة إعلاميـة على الأقـل، بينهـا 12 صحيفة ورقيـة و23 صحيفـة إلكترونيـة و11 إذاعـة و4 قنـوات فضائيـة. ودمّـرَ مقـرّات فضائيـة عربيـة ودوليـة، وأُتلفـت معـدات البـث والكاميـرات وسـيارات النقـل المباشـر. كل ذلـك كان على قوائـم الاسـتهداف لـدى الاحتلال؛ لـم تكـن محـض أضـرار جانبية بـل كان الاسـتهداف مباشـرًا ومقصـودًا، وظـل كذلـك على مـدار هـذه الحـرب التـي لم تنتـه حتـى وقت كتابـة هـذه الكلمات. أمّـا الحـرب الأخـرى على الصحافـة في غزّة فلمسـناها على المنصـات الرقمية؛ حيـث حُجبـت عشـرات الحسـابات الفلسـطينية بحجـة «مخالفـة المعاييـر»، ومثلهـا في وسـائل إعلام غربيّـة سـائدة، قـررت ذبحنـا مـرّات عديـدة: مـرّة بتجاهـل موتنـا، ومـرّات بتبريـره عبـر التماهـي مـع الروايـة الرسـمية الإسـرائيلية. حالـة متكاملـة مـن «الإبـادة الإعلاميـة» التـي لـم يشـهد لهـا التاريـخ أي مثيـل.

مـع ذلـك كلّـه، رغـم الإبـادة ووقائعهـا التـي أدمـت القلـب وأرهقـت الـروح قبـل الجسـد، لا زالت التغطية مسـتمرة؛ مـن أجـل غـزة ومـن أجـل الأرض الفلسـطينية المُحتلـة المسـلوبة، مـن أجـل أعمـار الأسـرى التـي ذبلـتْ خلـف القضبـان، ومن أجل الشـهداء: أسـمائهم وحكاياتهـم وعطاياهـم التي لـن ندعها تذهـبُ في مهـبّ الأرقـام، مـن أجـل الزمـيلات والـزملاء الذيـن يحترقـون و يرتقـون ويحرمـون مـن عنـاق أطفالهم، مـن أجـل المعذبيـن الجائعيـن المحاصريـن، مـن أجـل أراضـي الزيتـون والثـوب الفلاحـي التـي حاكتـهُ أيـادي الجـدّات، مـن أجـل ثقافتنـا ومسـارحنا وسـاحاتنا التـي لطـالما أحيتهـا دبـكات شـبابنا، مـن أجـل النُطـف التـي تتكـور في رحـم الأمهـات القابعـات في الخيام التـي لا تقـي مـن حـرِّ الصيـف ولا بـرد الشـتاء، راسـمات أملًا في الحصـول على حيـاة كريمـة بمسـكن آمـن وبسَـبورة تعليميـة تعلوهـا رسـوماتٌ بطباشـيرٍ تمثـل واقعًـا ملونًـا يحلمـن فيـه، مـن أجـل الأمـل الـذي نحلـم أن يتمخـض عـن هـذا الألـم الـذي طـال واسـتفحل.

في غـزَّة الصغيـرة، بمسـاحتها التـي لا تتجـاوز 365كـم$^2$، يصـر الصحفيـون في محافظاتهـا الخمسـة التي كانـت عامرة دومًـا - وهـي لمـن لا يعرفونهـا: شـمال غـزة، ومدينـة غـزة، ودير البلـح، وخـان يونـس، ورفـح - على الوجـود وبـذل الجهـد والمسـارعة في التوثيق وإرسـال الأخبـار العاجلـة للقنوات التـي يعملون لصالحهـا، أمـا المراسـلون فيقفـون لسـاعات طويلـة في التغطيـات الحيـة المباشـرة؛ لبـث تفاصيـل المـوت في غـزة وأيـام هـذه الحـرب التـي تتصـارع على أيهـا يكـون الأقسـى والأفظـع. لا زلنـا نسـمع مـن المراسـلين الغزييـن تقاريـر وتفاصيـل وقصصًـا إنسـانية، نسـمع في خلفيـة تقاريرهـم زخـات الرصـاص وهديـر الطائـرات وأصـوات «الزنانـة» وصـراخ أولاد يهربـون، أو أمّهـات يناشـدن بتوفيـر الطعـام والماء، أو آبـاء يبحثـون عـن أشلاء أبنائهـم أو آبائهـم بـأدوات ومعـدات جُلهـا أخـرج عـن الخدمـة. حتـى الصحفـي نفسـه يعمـل بـأدوات شـبه متهالكـة بسـبب الحصـار والاسـتهداف الممنهـج للمؤسسـات والمقـرات الإعلاميـة. كل ذلـك مـن أجـل أن تسـتمر التغطيـة، ولا يخبـو صـوت الحيـاة في غـزّة.

الجميع خاسر في هذه الحرب، مهما اختلفت الأشكال والألوان والأحجام. سيظهر لاحقًا أن الدرع الصحفي يجلب أشكالاً كثيرة من الموت في غزّة، لصاحب الدرع وربما لأهله وأصحابه وكل من حوله (تصوير: عبد الحكيم خالد - رويترز).

ليـس سـهلًا أن تكـون صحفيًـا فلسـطينياً غزّاويًـا؛ لـم يكـن سـهلًا فيمـا انقضـى مـن حـروب، وكانـت كلفتـه باهظـة في خضـمّ هـذه الإبادة. لكنّهـا غـزّة المحاصـرة منـذ 20 عامًـا، والمحتلّـة اليـوم التـي لا تـزال تصـرّ على إعلان حقهـا في الحيـاة، فتُذيـع أخبارهـا وقصصهـا إلـى كل العالـم.

ملاحظـة المحرر: سـتصدر هذه الشـهادة ضمـن نسـخة محدثـة مـن كتـاب «وحدنـا غطينـا الحـرب» الـذي يوثـق شـهادات الصحفيين الفلسـطينيين في تغطيـة حـرب الإبـادة الجماعيـة.

# المراجع

(1) نوع من الوظائف التي يلجأ لها الصحفي الفلسطيني، بالتراسل والكتابة والتصوير، مع مواقع ومؤسسات صحفية عربية أو أجنبية. يجتهد الصحفي في إرسال الأفكار لإقناع المحرر المسؤول عن التواصل، ويحصل بالمقابل على مبلغ مالي متفق عليه، عادة ما يكون زهيدًا، وكثيرًا من يتأخر دفعه ويتراكم.

(2) ممر عسكري إسرائيلي يفصل شمال قطاع غزة عن وسطه وجنوبه. و»نتساريم» هي تسمية اختارها الجنرال اليميني المتطرف رحبعام زئيفي، وهي ترجمة عبرية من كلمة «النصيرات»، في اقتباس لاسم مخيم اللاجئين الفلسطينيين المجاور للمحور، وهو كذلك اسم مستوطنة كانت قائمة قبل العام 2005. أطلق الغزّيّون على الممر اسم «مفرق الشهداء» لكثرة أعداد من سقطوا فيه من الشهداء الفلسطينيين في الأيام الأولى من انتفاضة الأقصى.

(3) هي طائرات استطلاع إسرائيلية، تقوم بمهمات التصوير والتعقب للأهداف المختلفة، واستخدمها جيش الاحتلال في تنفيذ عمليات استهداف دموية عديدة داخل قطاع غزة. ظهرت طائرة «الزنّانة» أول مرة في جيش الاحتلال الإسرائيلي عام 1969 حين استخدمها لالتقاط بعض الصور من أهداف في الأردن ومصر، وتم استخدام هذه الصور في حرب عام 1973. وكذلك كان لهذه الطائرات دور في اجتياح لبنان عام 1982. يعرف الغزيون جيدًا - حتى الأطفال - صوت هذه الطائرة ويميزونها عن غيرها.

(4) أكبر أحياء البلدة القديمة بمدينة غزَّة، والثاني من حيث عدد السكان، سمي بهذا الاسم لكثرة أشجار الزيتون التي تغطي مساحات واسعة منه، ويضم العديد من الأماكن الأثرية التاريخية.

(5) نتيجة نفاد الوقود في قطاع غزة والدمار الذي لحق بالطرق المعبدة استبدل الناس السيارات بعربات تجرها الحيوانات ويحملون بها الناس ويتنقلون بها من مكان إلى آخر ويسعفون عليها المصابين، تعرف باسم «عربات الكارو».

(6) من أقدم مستشفيات مدينة غزة، ارتكب الاحتلال الإسرائيلي فيه واحدة من أبشع المجازر، بقصفه بالطيران الحربي مما أدى لاستشهاد أكثر من 500 فلسطيني من النساء والأطفال، ثم أتبع ذلك الاحتلال بقصفه عدة مرات.

(7) هي مادة عسكرية متفجرة شديدة الخطورة، تحتوي على مادة (RDX) شديدة الانفجار التي تستخدم في التصنيع العسكري.

(8) سجن في قاعدة عسكرية بصحراء النقب على بُعد 30 كيلومترا من قطاع غزَّة في اتجاه مدينة بئر السبع. أنشأه الاحتلال مباشرة بعد بداية عدوانه على غزة في 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023، ونقل إليه العديد ممن اعتقلهم، من أطفال وشباب وكبار في السن.

(9) وقعت مجزرة الطحين بالقرب من دوار النابلسي في شارع الرشيد غرب مدينة غزَّة في 29 فبراير 2024 حين حاول أهالي مدينة غزَّة الحصول على المساعدات الغذائية والطحين من الشاحنات التي دخلت عبر شارع الرشيد لكن قوات الاحتلال أطلقت النار عليهم واستشهد 112 مدنيًا فلسطينيًا وأصيب ما لا يقل عن 760 آخرين.

# الصحافة في موريتانيا.. ما خلف مؤشرات حرية التعبير!

أحمد محمد المصطفى

تحتل موريتانيا مرتبة الصدارة في مؤشر حرية التعبير الصادر عن منظمة «مراسلون بلا حدود» في العالم العربي، لكن خلف هذه الصورة، تواجه وسائل الإعلام والصحفيون تحديات كبيرة ترتبط بضبابية مفهوم «الصحفي»، وقدرتهم على تمثل أدوار المهنة في المساءلة والمحاسبة. ورغم الجهود الرسمية، فإن السمة الأساسية للمشهد الإعلامي الموريتاني هي: التأرجح.

قد تبدو صورة المشهد الإعلامي الموريتاني للمتلقي الخارجي براقة وزاهية، فالبلد حافظ – رغم تراجعه – على تصدر العالم العربي في مجال الحريات الصحفية وفق تقرير «مراسلون بلا حدود»(1)، أما التصريحات الرسمية فتتحدث عن خطوات واثقة على طريق المأسسة والتمهين، والبلد يشهد تنوعا في المؤسسات، ووفرة في الإعلاميين، وتضخما في المؤسسات النقابية المدافعة عن حقوق الصحفيين، لكن خلف هذه الصورة- أو في جانبها -صورة أخرى لمشهد مختلف، لعل أقرب توصيف لها هو أن المشهد الإعلامي يعيش حالة تأرجح دائم ومربك، تجعل الحكم عليه غير مركب وعرضة للخطأ إذا ما أخذنا بعين الحسبان كل أبعاد الصورة.

وفق آخر مسح (2) - أعدته السلطات - أنجز خلال الفترة من 18 نوفمبر/ تشرين الثاني إلى 05 ديسمبر/ كانون الأول 2025، أظهر وجود أربع مؤسسات إعلامية عمومية، و250 موقعا إلكترونيا، و66 صحيفة ورقية، و11 قناة سمعية بصرية، وعشرة مراسلين دوليين، وأربعة ممثلين لوكالات نفاذ شامل مشروط، و62 منصة إعلامية على فيسبوك، و15 وكالة إنتاج سمعي بصري، و27 هيئة أو رابطة صحفية. فيما تكشف آخر قائمة للمنتسبين لنقابة الصحفيين الموريتانيين (كبرى النقابات المهنية) وجود أكثر من 1700 منتسب، فضلا عن قوائم منتسبة للنقابات والروابط والاتحادات الأخرى.

نجد هذا الأرقام (3) في بلد لا يصل عدد سكانه إلى 5 ملايين، وتتجاوز نسبة الأمية فيه 40 بالمئة، أما نسبة الولوج إلى الإنترنت فتتراوح بين 65 و70٪. وفق الأرقام الرسمية.

## تجربة قصيرة

قد تبدو تجربة الإعلام المستقل في البلاد قصيرة نسبيا، مقارنة مع بلدان أخرى عربية وأفريقية أسست لتجربتها بعد الاستقلال مباشرة، أو حتى قبله، إذ بالكاد أكملت عقدها الرابع وظهرت بواكيرها بالتزامن مع ما عرف بالتحضير لمسلسل التعددية السياسية في النصف الأخير من عقد الثمانينات وبداية عقد التسعينيات مع صدور دستور «العشرين من يوليو» 1991.

ظلت التجربة تتقدم مسجلة انتكاسات هنا أو هناك تمثلت في مصادرة العديد من الصحف المطبوعة خلال عقد التسعينات، والنصف الأول من عقد الألفية الجديدة، قبل أن تحقق قفزة خلال الفترة الانتقالية 2005 – 2007، بعيد سقوط نظام معاوية ولد الطايع (رئيس موريتاني سابق).

وبقليل من المنهجية يمكن القول: إن الأنظمة التي تعاقبت على الحكم منذ بداية تجربة الإعلام المستقل سعت لترك بصمتها الخاصة في مجال تطوير التجربة الإعلامية؛ ففي عهد حكم الرئيس الأسبق معاوية ولد الطايع (1984 - 2005) انطلقت التجربة، وفي عهد العقيد علي ولد محمد فال الذي حكم البلاد لفترة انتقالية قصيرة (2005 – 2007) قفز مؤشر الحرية، وألغيت الرقابة القبلية على الإعلام، وأوكلت مهمة ترخيصه إلى القضاء بدل الداخلية، وألغي قانون مصادرة الصحف، وأسست السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية «الهابا»، وفي عهد الرئيس السابق محمد ولد عبد العزيز (2008 - 2019) أطلقت تجربة تحرير الفضاء السمعي البصري من خلال رفد تجربة الإعلام المستقل بإطلاق إذاعات وقنوات خاصة، بعد أن كان مقتصرا على الصحف والمواقع الإلكترونية، رغم أن التجربة واجهت عقبات وتحديات حدت كثيرا من نجاحها، لكنها تركت بصمة على التجربة الإعلامية في البلاد.

> **رأت لجنة الإعلام في تشخيصها لواقع الإعلام في موريتانيا أنه «في واد سحيق بعيد عن الإعلام الناجح، فهو على تعدد قنواته العمومية والخصوصية، وكثرة محطاته ومراسليه في الداخل، بلا تأثير جوهري على المواطن، وبعيد عن التنوير والتحديث، وعن الإسهام في معركة نشر العلم والتنمية».**

## لجنة إصلاح ووعود متكررة بالتمهين

وفي يونيو/ حزيران 2020، وبعد أشهر من استلامه السلطة، شكل الرئيس الحالي محمد ولد الغزواني، لجنة (4) عهد إليها تقديم تشخيص لواقع الصحافة في البلاد، وعقد معها اجتماعا في اليوم الموالي لتعيينها ذكّرها خلاله بـ «جسامة المسؤولية المسندة لها، المتمثلة في تقديم مقترحات لإصلاح شامل للقطاع الإعلامي بشقيه العمومي والخاص».

وبعد أشهر من العمل، ودراسة الساحة الإعلامية، ومقابلة الخبراء

والإعلاميين، قدمت اللجنة تقريرا للرئيس، خلصت فيه إلى أن وضع الإعلام في البلاد «بالغ الخطورة، وأن تأثيره السلبي على الدولة والمجتمع لم يعد خافيا»، مردفة أن «كل ما نعاينه اليوم من الفوضى والتسيب والفساد، عائد كليا أو جزئيا إلى فشل الإعلام».

وقدمت اللجنة 64 مقترحا (5) رأت أن تنفيذها كفيل بحل الأزمة التي تواجه المشهد الإعلامي في البلاد، وتوزعت هذه المقترحات على ثمانية محاور، هي السياسة الوطنية للإعلام، والهيكلة، والقوانين، والمصادر البشرية والتكوين، والدعم والمصادر المالية، والمضامين، والمجال لتقني، والإعلام الجديد.

لعل من أبرز العقبات والتحديات التي تواجه المشهد الإعلامي الموريتاني هو ما يعانيه من تشتت وتمييع، حوّله إلى مجال طارد للكفاءات والخبرات، (6) إذ ثمة أعداد هائلة تمتلك رخص

> **وصل الأمر إلى درجة تسلل أشخاص أميين إلى الحقل الإعلامي، ووجود أعداد من المؤسسات التي لا تتجاوز في الواقع مجموعة أوراق في محفظة شخصية، يزاحم حاملها مديري المؤسسات الإعلامية، والصحفيين في الأنشطة والمؤتمرات، وفي الدعم العمومي المخصص للصحافة الخاصة، بل قد يكون أوفر حظا منها فيه.**

وأضافت اللجنة في تشخيصها لواقع الإعلام في موريتانيا أنه «في واد سحيق بعيد عن الإعلام الناجح، فهو على تعدد قنواته العمومية والخصوصية، وكثرة محطاته ومراسليه في الداخل، بلا تأثير جوهري على المواطن، وبعيد عن التنوير والتحديث، وعن الإسهام في معركة نشر العلم والتنمية»، كما أنه «يبتعد عن تناول الملفات والقضايا التي ترتبط بحياة الناس.. ولا يمارس النقد البناء ويغطي على الإخفاقات، ولا يستخدم البحث والاستقصاء في قضايا الرشوة والكذب والغش والدجل والكسل، ومظاهر الفوضى في الشارع والسوق والمدرسة والمسجد والنقل».

تصدرت موريتانيا الترتيب على المستويين العربي والأفريقي في التصنيف العالمي لحرية الصحافة لعام 2024، لتصل إلى المرتبة 33 عالميًا. (تصوير: جورج جوبيه - AFP)

مؤسسات إعلامية، وتتصدر أحيانا الحضور في الأنشطة الرسمية، في حين أن مستوياتها وكفاءتها، وطبيعة عملها بعيد كل البعد عن الممارسة الإعلامية المهنية.

وقد وصل الأمر إلى درجة تسلل أشخاص أميين إلى الحقل الإعلامي، ووجود أعداد من المؤسسات التي لا تتجاوز في الواقع مجموعة أوراق في محفظة شخصية، يزاحم حاملها مديري المؤسسات الإعلامية، والصحفيين في الأنشطة والمؤتمرات، وفي الدعم العمومي المخصص للصحافة الخاصة، بل قد يكون أوفر حظا منها فيه.

هذا الواقع ناتج بالأساس عن تعطيل القوانين السارية في البلاد، خصوصا المواد التي تحدد من هو الصحفي، وتتضمن شروط الحصول على البطاقة الصحفية وضوابطها، وحق ممارسة العمل الإعلامي، ورغم بروز العديد من المحاولات خلال السنوات الماضية لتطبيق هذه النصوص - كان آخرها قبل أسابيع (7) - فإنها كانت تتوقف في منتصف الطريق دائما.

وقد عبّرت منظمة «مراسلون بلا حدود»، عن هذا الواقع بطريقة دبلوماسية، حين أكدت أن وضع الصحفيين في موريتانيا «لا يزال يتسم بالهشاشة، مما يجعلهم عرضة لما يُصطلح عليه بـ «صحافة القوت اليومي»، أي كتابة مقالات أو إنجاز تقارير صحفية مقابل تقاضي مبلغ مالي معين.. وإذا كانت وسائل الإعلام تتلقى إعانات مهمة، فإن هذه الأخيرة تبقى غير كافية لضمان استقرارها الاقتصادي، بسبب سوء الإدارة وضعف التدبير». (8)

ولمعالجة هذا الواقع، اقترحت السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية «الهابا» إعداد خطة ومتابعة وتقييم، وقد رأت ضرورة أن تأخذ في الحسبان ثلاثة اعتبارات، هي اعتماد خطة عملية لتنزيل المقتضيات القانونية، واستكمال محددات إصدار البطاقة الصحفية، ومراجعة طريقة توزيع صندوق دعم الصحافة الخاصة، كما رأت – أيضا- أن لجنة مشتركة بينها والوزارة الوصية يمكن أن تنفذ هذه الخطة خلال الفترة 2025 – 2028.

**بعد أشهر من العمل، ودراسة الساحة الإعلامية، ومقابلة الخبراء والإعلاميين، قدمت اللجنة تقريرا لرئيس البلاد، خلصت فيه إلى أن وضع الإعلام في البلاد «بالغ الخطورة، وأن تأثيره السلبي على الدولة والمجتمع لم يعد خافيا»، مردفة أن «كل ما نعاينه اليوم من الفوضى والتسيب والفساد، عائد كليا أو جزئيا إلى فشل الإعلام».**

## تعثر تحرير الفضاء

وكما تعثرت تجربة ضبط الإعلام على مستوى الأفراد، والمؤسسات التي تعمل في مجال الصحافة المطبوعة، فإن تجربة الفضاء السمعي البصري لم تكن أفضل حالا، حيث واجهت إكراهات وعقبات أفرغتها من رسالتها وأهدافها، ودفعت بالعديد منها للتوقف عن البث بشكل فعلي، أو التحول إلى بث مسجل دون احترام للالتزامات المترتبة على الرخصة.

بدأت التجربة 2011 عبر الترخيص لخمس إذاعات وقناتين تلفزيونيتين، تبعتها ثلاث قنوات في العام 2013، وفي السنوات الثلاث الأخيرة رخص لثلاث قنوات جديدة.

أما الواقع اليوم، فهو أن القنوات الثلاث الأخيرة هي وحدها التي تعمل بشكل منتظم في ظل وضعية قانونية سليمة، أما البقية، فستّ منها منتهية الترخيص ومتوقفة بشكل كلي أو جزئي، والبقية تعمل دون ترخيص بعد نهاية رخصتها القانونية دون تجديدها.

كما أن مؤسسات الإعلام العمومي (إذاعة موريتانية – قناة الموريتانية) لم توقّع - إلى اليوم - على دفتر الشروط والالتزامات الملزم لها قانونيا مع السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية، كما لم توقّع برنامجا تعاقديا مع الحكومة.

ويكشف المسح الذي أعدته السلطة، أن عدد عمال قناة الموريتانية (الرسمية) لا يتجاوز 885 عاملا، 204 منهم فقط يمتلكون عقود عمل، فيما يبلغ عدد عمال إذاعة موريتانيا 1078 عاملا، 180 منهم فقط يمتلكون عقود عمل، (9) أما الوكالة الرسمية فيبلغ عدد عمالها 416 عاملا، 262 منهم لديهم عقود عمل. أما القنوات والإذاعات الخاصة، فبلغ مجموع عمالهم 241 عاملا فقط، 151 منهم لديهم عقود عمل. (10)

هذا الواقع المؤسسي المتأرجح، دفع السلطة لتوقيف المسار عمليا من خلال تأجيل إصدار النصوص المتعلقة بالقنوات الجمعوية، في ظل تعثر تجارب القنوات والإذاعات الخاصة الإخبارية.

## تأرجح على مستوى الحريات

وإذا كان التأرجح والتعثر واضحا في المحاور السابقة، فإنه في مجال الحريات يبدو أوضح وأكثر حضورا، سواء على مستوى الممارسات الميدانية، أو التصنيفات والمؤشرات الدولية.

وهكذا، يتعرض الصحفيون في الميدان لمضايقات دائمة من أجهزة الأمن أثناء أدائهم لمهامهم، تصل أحيانا درجة الاعتداء الجسدي، ومصادرة أدوات عملهم، كما يواجهون ضغوطا رسمية ومجتمعية لمنعهم من أداء مهامهم في كشف الفساد، ومتابعة الاختلالات.

أما على مستوى المؤشرات الدولية، فمثال ذلك آخر تصنيف صادر عن منظمة «مراسلون بلا حدود»، الذي كشف عن تراجع موريتانيا بـ17 مرتبة دفعة واحدة خلال العام الجاري؛ إذ انتقلت من المرتبة 33 إلى المرتبة 50، لتفقد بذلك صدارة الدول الأفريقية، مع احتفاظها بصدارة الدول العربية.

> **الخلاصة، أن المشهد الإعلامي الموريتاني يمتلك مقومات قوة يمكن البناء عليها لتقديم تجربة إعلامية ناجحة في أبعادها ومكوناتها المختلفة، لكنه في الآن ذاته يحمل نقاط ضعف، واختلالات بنيوية، تشكل خطرا عليه، وقد تدفع بهذه التجربة نحو الفشل.**

وفي الحقيقة، فإن تاريخها مع التأرجح على هذا المؤشر طويل جدا، فخلال عقدين تأرجحت موريتانيا بين مراكز متقدمة جدا يضعها في مقدمة الدول التي تحترم حرية الصحافة، وارتكاس كبير ومتسارع يعيدها إلى عمق الدول المحاصرة لحرية التعبير.

فبين عامي 2005 و2025، بلغت موريتانيا المرتبة الخمسين أو تجاوزتها أربع مرات فقط، فيما جاءت في بقية السنوات في مراتب أدنى، وصلت في بعضها إلى ما بعد المرتبة المئة. (11)

والخلاصة، أن المشهد الإعلامي الموريتاني يمتلك مقومات قوة يمكن البناء عليها لتقديم تجربة إعلامية ناجحة في أبعادها ومكوناتها المختلفة، لكنه في الآن ذاته يحمل نقاط ضعف، واختلالات بنيوية، تشكل خطرا عليه، وقد تدفع بهذه التجربة نحو الفشل.

عبّرت منظمة «مراسلون بلا حدود»، عن واقع الصحفيين في موريتانيا: «لا يزال يتسم بالهشاشة، مما يجعلهم عرضة لما يُصطلح عليه بـ «صحافة القوت اليومي» غير الكافية لضمان استقرارهم الاقتصادي» (تصوير: جيوفاني ميريجيتي - غيتي)..

# المراجع


(1) مراسلون بلا حدود. «موريتانيا.» مراسلون بلا حدود. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://rsf.org/ar/البلاد/موريتانيا.

(2) Al Jazeera Media Institute. "AJMI Trainer Application Form." Jotform. Accessed November 2, 2025. https://www.jotform.com/231545029583054.

(3) Ansade. «النتائج النهائية للتعداد العام للسكان والمساكن 2023.» Ansade. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://ansade.mr/ar/النتائج-النهائية-للتعداد-العام-للسكا/.

(4) السراج. «عينت اللجنة يوم 20 يوليو 2020، واجتمع الرئيس مع أعضائها في اليوم الموالي.» السراج الإخباري. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://essirage.net/node/20228.

(5) الأخبار إنفو. «يمكنكم مطالعة أبرز المقترحات من خلال هذا الرابط.» الأخبار إنفو. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://alakhbar.info/?q=node/31256.

(6) سيدي، أحمد. «الصّحافة الرقميّة في موريتانيا.. البدايات الصعبة.» معهد الجزيرة للإعلام. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article/1549.

(7) صحراء ميديا. «في منتصف أغسطس الماضي، أعلن عن تشكيل لجنة مكلفة بدراسة ومنح البطاقة الصحفية الوطنية في موريتانيا...» صحراء ميديا. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://saharamedias.net/248134/.

(8) مراسلون بلا حدود. «موريتانيا.» مراسلون بلا حدود. تم الدخول في 2 نوفمبر 2025. https://rsf.org/ar/البلاد/موريتانيا.

(9) أعلن قبل أسابيع قليلة عن مسار لتسوية وضعية العمال غير الحائزين على عقود عمل في مؤسسات الإعلام الرسمية

(10) المسح الوطني الذي أعدته السلطة العليا للصحافة والسمعيات البصرية «الهابا» نهاية العام المنصرم

(11) أحمد محمد المصطفى، «كيف نفهم تصدّر موريتانيا ترتيب حرّيات الصحافة عربياً وأفريقياً؟» معهد الجزيرة للإعلام، تم الدخول في 2 نوفمبر 2025، https://institute.aljazeera.net/en/node/2663.

# أي صورة ستبقى في الذاكرة العالمية عن غزة؟

حسن عبيد

**أي صورة ستبقى في المخيلة العالمية عن غزة؟ هل ستُختصر القصة في بيانات رسمية تضع الفلسطيني في خانة «الخطر»؟ أم في صور الضحايا التي تملأ الفضاء الرقمي؟ وكيف يمكن أن تتحول وسائل الإعلام إلى أداة لترسيخ الذاكرة الجماعية وصراع السرديات؟**

على أطراف القدس، لا تزال دير ياسين تحمل جرحا مفتوحا، فبعد مجزرة التاسع من أبريل/ نيسان عام 1948، لم يُمح المكان من سكانه فحسب، بل أُعيد توظيف أنقاضه ليصبح أساسا لمصحّة نفسية إسرائيلية عُرفت باسم «كفار شاؤول». أما المفارقة المفجعة أن أوائل المرضى الذين استقبلتهم جدران المصحّة كانوا ناجين من معسكرات النازية في أوروبا، يعالجون ذاكرتهم المثقلة بالهولوكوست فوق أرض حُرم ضحاياها الفلسطينيون من حقّ التذكّر، بل من حقّ الحياة أصلا.

في «كفار شاؤول» يُعاد ترتيب الاستعمار على عجل فوق أنقاض قرية. فالمجزرة التي طمست ذاكرة دير ياسين لم تُنهِ قصتها فحسب؛ بل استبدلتها مكانا وذاكرة بأخرى فورا، دون فسحة زمنية. هنا يكتسب فعل الإبادة كثافته القصوى، إذ يُمحى تاريخ الفلسطينيين وذاكرتهم الجمعية من الحيّز المادي، ويُزرع في الموضع ذاته تاريخ وذاكرة آخران، باعتبارهما الذاكرة الجديرة بالاعتراف والخلود.

منذ عقود، ينظر باحثو العلوم الاجتماعية إلى الذاكرة بوصفها أكثر من مجرد استعادة للماضي؛ فهي تتحول في لحظات الأزمات الجماعية إلى أداة سياسية ورمز للصراع على المعنى. يشير بول ريكور إلى أن الذاكرة (1) ليست انعكاسًا بسيطًا للأحداث، بل مجالًا للتلاعب والانتقاء، حيث يُعاد ترتيب الماضي لخدمة رهانات الحاضر. أما بيير نورا فقد تحدث عن «عوالم الذاكرة»(2) باعتبارها مكونات مادية ورمزية تُستثمر في تشكيل هوية جماعية، خاصة حين تقع المجتمعات تحت وطأة الحرب أو الأزمات.

وفي السياق نفسه، يفترض نيكولاي كوبوسوف، - في كتابه «قوانين الذاكرة، حروب الذاكرة» (3) - أن الصراع على الماضي لم يعد محصورا في الحقول الثقافية أو الأكاديمية وحدها، بل امتد إلى فضاءات القانون والسياسة والدبلوماسية، حيث تُستنفذ أدوات تشريعية ومؤسسية لإحكام سرديات تاريخية أو لفرض حدود لما يعد مقبولًا تذكُّره أو إنكاره.

في السياق الفلسطيني، يُعد إدوارد سعيد من أبرز المفكرين الذين ناقشوا العلاقة بين السرد والذاكرة والإعلام، مؤكدًا أن من يملك القدرة على سرد قصته هو من يكتب التاريخ. ففي مقالته الشهيرة بعنوان «إذن السرد (Permission to Narrate) (4)عام 1984، انتقد سعيد التغطية الإعلامية الغربية المنحازة التي تتجاهل الرواية الفلسطينية، مشيرا إلى أن الفلسطينيين حُرموا من حقهم في التعبير عن تجربتهم الخاصة. ورأى أن القدرة على السرد، أو منع السرد من التشكّل والظهور، أمر بالغ الأهمية للثقافة والإمبريالية، وتشكل إحدى الروابط الرئيسية بينهما. ومن هذا المنطلق، تعكس كلمات الشاعر محمود درويش هذا البعد الإنساني والوطني للذاكرة، حين قال: «لا أُقرر تمثيل أي شيء سوى ذاتي. لكن تلك الذات مليئة بالذاكرة الجماعية.» إذ تُجسد الذات الفلسطينية حكاية شعب بأكمله، تتحرك بين الذاكرة الفردية والجماعية، بين التجربة الشخصية والهوية الوطنية.

في هذا الإطار، تبرز غزة كنموذج صارخ، فليست الإبادة التي تتعرض لها مجرد مأساة إنسانية، بل أيضًا معركة على الذاكرة. فالسؤال هنا، أي صورة ستبقى في المخيلة العالمية عن غزة؟ هل ستُختصر القصة في بيانات رسمية تضع الفلسطيني في خانة «الخطر»؟ أم في صور الضحايا التي تملأ الفضاء الرقمي؟ هنا يتحول الإعلام التقليدي والرقمي إلى الساحة التي تتصارع فيها روايات الماضي والمستقبل معا، لتحدد أي ذاكرة ستعيش وأيها ستُمحى.

الذاكرة الفلسطينية ليست مجرد تراكم للذكريات؛ بل فضاءات متشابكة من علامات ورموز يقرؤها الإعلام ويعيد تشكيلها. أسماء الأماكن، والصور، والشهادات، والأغاني، والنُصب تتحول إلى أدوات فاعلة في صراع على الوجود. يؤدي الإعلام هنا دورين متقابلين، إما آلية للطمس عبر محو الشواهد وتغييب السرد، وإما أداة للمقاومة.

## أزمة الذاكرة

تطرق العديد من الباحثين إلى دور الإعلام فيما أسموه «أزمة الذاكرة» (Memory crisis)، باعتبارها حالة من التشبع المفرط بالرموز والتمثيلات، بحيث لا يعود الحدث الأصلي حاضرا في فرادته، بل يتحوّل إلى مادة متداولة روتينية تُستهلك في الإعلام والثقافة الشعبية. الأزمة هنا لا تعني فقدان المعلومات، بل وفرتها الزائدة، حيث يصبح كل شيء – حتى المنتجات التجارية – رمزًا للذاكرة، ما يؤدي إلى سطحية في التلقي. يضيف أندرياس هويسن (5) أن هذا التراكم المتواصل للصور والسرديات لا ينتج معرفة جديدة، إذ ينزاح النقاش من التركيز على الذاكرة والعدالة إلى الانشغال بالشكل الجمالي أو الأخلاقي للتذكر. بهذا المعنى، تتحول الذاكرة من أداة مقاومة إلى سوق استهلاكي للرموز.

أزمة الذاكرة. فهو لا يكتفي بنقل الأحداث، بل يعيد إنتاجها في صور متكررة ومجزأة، كما يحدث مثلًا عند إعادة بث مشاهد الحروب أو الكوارث الإنسانية مرارا في نشرات الأخبار ووسائل التواصل. هذا التكرار يولّد ما تسميه أليدا آسمان «إرهاق الذاكرة»، أي شعور بالتخمة البصرية التي قد تؤدي في النهاية إلى فقدان أثر الحدث نفسه وتراجع قدرته على البقاء في الذاكرة. (6) ومع ذلك، فإن هذا التدفق الهائل للصور لا يؤدي بالضرورة إلى فعل سياسي أو فهم معمّق؛ فمشاهدة صور اللاجئين أو ضحايا الإبادة مثلًا قد تثير تعاطفًا عابرًا، لكنها لا تترجم دائمًا إلى وعي أو تغيير فعلي.

في المقابل، يشير بعض الباحثين إلى أن الإعلام قد يكون أيضًا مساحة نقدية تُعرف بـ «Forum Regime»، أي فضاء يسمح بمساءلة روتين الذاكرة وإعادة النظر في طرق تمثيلها. (7) يمكن أن نرى ذلك في الأفلام الوثائقية أو التحقيقات الاستقصائية التي تكسر السرديات السائدة وتطرح روايات بديلة، مثل الأعمال الفنية التي تعيد سرد أحداث تاريخية من وجهة نظر الضحايا كمسلسل «التغريبة الفلسطينية» بدلًا من الاقتصار على الرواية الرسمية.

وهكذا يظهر الإعلام كقوة مزدوجة: فمن جهة قد يساهم في تسطيح الذاكرة عبر التكرار المرهق والاستهلاك السريع للصور، ومن جهة أخرى قد يعمل كمنصة لإعادة شحنها بالمعنى عبر طرح أسئلة نقدية وتوليد تمثيلات جديدة.

## الذاكرة متعددة الاتجاهات

صك هذا المفهوم ميخائيل روثبرغ في كتابه «الذاكرة متعددة الاتجاهات: تذكر الهولوكوست في عصر إنهاء الاستعمار»،(8) حيث قدم مفهوم الذاكرة متعددة الاتجاهات كإطار تحليلي لفهم كيفية مواجهة الذاكرة الخاصة بمجتمع لذاكرة مجتمعات أخرى في المجال العام. فعلى عكس منطق

في نموذج غزة، يؤدي الإعلام دورين متقابلين: إما آلية للطمس عبر محو الشواهد وتغييب السرد، وإما أداة للمقاومة (تصوير: حسن الجدي - غيتي).

الذاكرة التنافسية الذي يفترض أن ذاكرة معينة تُقصي الأخرى، يرى روثبرغ أن الذاكرة تعمل إنتاجيًا من خلال التفاوض، والإحالة المتبادلة، والاقتراض بين التجارب التاريخية، بحيث يؤدي الصراع بين ذاكرة وأخرى إلى توسعها وليس تقلصها.

من المفارقة أن الكاتب ناقش في كتابه أن ذاكرة الهولوكوست لم تنشأ بمعزل عن تجارب العنف الاستعماري والعبودية وحركات التحرر الوطني، فالذاكرة العامة للهولوكوست نشأت جزئيا بفضل أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية التي تبدو للوهلة الأولى غير ذات صلة بها. ويجادل الكاتب أن حركات إنهاء الاستعمار، وحركات الحقوق المدنية في منطقة البحر الكاريبي، وأفريقيا، وأوروبا، والولايات المتحدة، وأماكن أخرى، حفّزت، بشكل غير متوقع، ذاكرة الهولوكوست.

طبعا هذه الجدلية بحاجة لمناقشة معمقة لا يسع هذا المقال لنقاشها. لكن «روثبرغ» وجد ربطا بين ذاكرة الهولوكوست وذاكرة الشعوب التي تحررت من الاستعمار، فماذا نقول إذا عن الذاكرة الفلسطينية؟!

يمكن النظر إلى ذاكرة غزة على أنها تجربة متعددة الاتجاهات عندما تُقارن وتُربط بمآس وتجارب شعوب الجنوب العالمي، مثل الاستعمار في أفريقيا، مجازر رواندا، أو الإبادة الجماعية في البوسنة. فهذه المقارنات لا تعني نسبية المعاناة الفلسطينية، بل تشكّل حوارًا تفاعليًا بين الشعوب، حيث تُنتج كل تجربة معرفات ورموزا جديدة تعيد تشكيل فهم الذاكرة الفلسطينية. على سبيل المثال، ربط صور الدمار والشهداء الفلسطينيين بمقارنات تاريخية مشابهة للعنف الاستعماري أو الإبادة الجماعية في مواقع الجنوب العالمي يُحوّل ذاكرة غزة من ذاكرة محلية محصورة إلى ذاكرة عالمية تعكس أبعادًا مشتركة.

> **في السياق الفلسطيني، يُعد إدوارد سعيد من أبرز المفكرين الذين ناقشوا العلاقة بين السرد والذاكرة والإعلام، مؤكدًا أن من يملك القدرة على سرد قصته هو من يكتب التاريخ.**

تؤدي المنصات الرقمية هنا دورا محوريا في توسيع فضاء هذا الحوار، فهي لا تكتفي بنقل الذاكرة، بل تجعلها نشطة ومتنقلة، عبر الصور والقصص والهاشتاغات التي تربط غزة بمآسي أخرى في الجنوب العالمي. هذه الحركة تجعل من غزة نقطة التقاء للذاكرة الجماعية العالمية، حيث تتفاعل التجارب التاريخية المختلفة لتنتج معرفة سياسية وأخلاقية جديدة، وتعيد تعريف فكرة التضامن الدولي من خلال الذاكرة المشتركة لضحايا العنف الممنهج.

لكن من ناحية أخرى، يضع الإعلام الغربي غزة أحيانا في مواجهة مع ذاكرة الهولوكوست، إذا غالبا ما تُستَخدم المحرقة معياراً وحيداً لقياس الفظائع، بل وأحيانًا ذريعة لتسويغ السردية الإسرائيلية عن «حق الدفاع عن النفس». هنا تصبح ذاكرة غزة في موقع مواجهة: فهي تُقارن بتجارب الجنوب العالمي بوصفها شبيهة ومكمّلة، لكنها تُحاصَر أمام ذاكرة الهولوكوست بوصفها ذاكرة منافسة أو «غير مؤهلة» لنيل الاعتراف نفسه.

## الذاكرة الجماعية

الذاكرة الجماعية كما صاغها (9) موريس هالبفاكس هي ذلك الوعي التاريخي المشترك الذي يتجاوز حدود الفرد ليُعاد إنتاجه داخل الجماعة عبر الأطر الاجتماعية والثقافية. هالبفاكس يوضح أن الأفراد لا يتذكرون بمعزل عن غيرهم، بل يستحضرون الماضي من خلال منظومات رمزية واجتماعية تضبط ما يُحفظ وما يُنسى، وأن الذاكرة البشرية لا يمكن أن تعمل إلا في سياق جماعي. ويؤكد هالبفاكس أن الذاكرة الجماعية انتقائية دائمًا؛ فلدى مجموعات مختلفة من الناس ذكريات جماعية مختلفة، مما يؤدي إلى أنماط سلوك مختلفة. ويوضح، على سبيل المثال، كيف استحضر الحجاج إلى الأراضي المقدسة على مر القرون صورًا مختلفة تمامًا لأحداث حياة المسيح؛ وكيف أن للعائلات القديمة الثرية في فرنسا ذاكرة عن الماضي تختلف اختلافًا حادًا عن ذاكرة الأثرياء الجدد؛ وكيف يختلف بناء الطبقة العاملة للواقع عن بناء نظرائها من الطبقة المتوسطة.

يمكن استخدام هذا الإطار النظري لفهم الذاكرة الجمعية الفلسطينية التي تعد من مقومات الصمود، بحيث لا يحدث تنازل في بعض جوانب الذاكرة نتيجة الضغط السياسي، كمحو ذاكرة النكبة. وحول دور الإعلام في ذلك، تعمل وسائل الإعلام الفلسطينية على ترسيخ ذاكرة جماعية للصمود عبر استدعاء صور الشهداء والدمار

وربطها بالنكبة، بحيث تُبنى سردية الضحية–المقاوم في مواجهة الاحتلال. في المقابل، تسعى بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية والداعمة لها إلى تشويه هذه الذاكرة من خلال قلب المعادلة، فبدلًا من الاعتراف بالضحايا، تُحمَّل غزة مسؤولية معاناتها، ويُقدَّم الفلسطينيون باعتبارهم سبب المأساة (لأنهم – بحسب السردية الإسرائيلية – «يختارون العنف» أو «يستخدمون المدنيين كدروع بشرية»). بهذه الطريقة، يُسلب الفلسطينيون حقهم في أن يتذكرهم العالم كضحايا، بل الدفع بتذكرهم كمذنبين لا كمظلومين.

**يرى أندرياس هويسن أن التراكم المتواصل للصور والسرديات لا ينتج معرفة جديدة، إذ ينزاح النقاش من التركيز على الذاكرة والعدالة إلى الانشغال بالشكل الجمالي أو الأخلاقي للتذكر. بهذا المعنى، تتحول الذاكرة من أداة مقاومة إلى سوق استهلاكي للرموز.**

## الذاكرة الثقافية

عند يان آسمن، الذاكرة الثقافية(10) ليست تذكّرًا عفويًا قصير المدى، بل بنية طويلة الأمد تحفظ الماضي عبر وسائط مؤسَّسة: نصوص، طقوس، رموز، آثار، ومؤسسات (مناهج، متاحف، أرشيفات). وهي تختلف عن «الذاكرة التواصلية» اليومية؛ إذ تعمل كـ«خزان للمعنى» يُستعاد جيلًا بعد جيل لتثبيت الهوية الجماعية.

الإعلام في سياق الذاكرة الثقافية لا يكتفي بوظيفة النقل أو التوثيق، بل يعيد إحياء الرموز وتثبتها في المخيال الجمعي. فالأغنية الوطنية، حين تُبث عبر الراديو أو التلفزيون في مناسبات تذكارية، تتحول من عمل فني إلى شيفرة رمزية تذكّر الأفراد بتاريخ مشترك وتعيد استحضار صور البطولة أو الفقد. وبالمثل، فإن تغطية طقوس إحياء ذكرى النكبة أو ذكرى الشهداء لا تعكس مجرد حدث سياسي، بل تؤطره ضمن سردية مستمرة. الحاضر امتداد للماضي، والمأساة لا تزال قائمة، وبالتالي فإن الانتماء والهوية يتجددان من خلال هذا الربط.

لا يكتفي الإعلام بتسجيل ما يحدث، بل يحوّل الرموز والصور إلى ذاكرة ثقافية. صورة الطفل الفلسطيني تحت الأنقاض، أو صورة أم تبكي على جثمان ابنها، تصبح رمزًا للمعاناة الجماعية. لكن الإعلام يؤدي دورا في شكل الترويج لهذه الرموز؛ إذ يمكن إعادة تدويرها بطرق متناقضة تماما، مرةً لتجسيد التضامن، وأخرى لإثارة الشفقة المجردة دون مساءلة سياسية.

غير أن الإعلام والفن والأدب قد يذهبون أبعد من ذلك عبر تجسيد الرموز في خطاب سياسي أو ثقافي موجَّه. فالفيلم الوثائقي أو التقرير الصحفي، حين يسلّط الضوء على مكتبة دُمّرت أو جامعة قُصفت، لا يوثّق واقعة مادية فقط، بل يقدّمها باعتبارها محاولة محو ثقافي، وهو ما يحوّل الفعل الإعلامي إلى آلية مقاومة للنسيان. في المقابل، حين تعمد بعض وسائل الإعلام الغربية إلى تقديم

الإفراط في عرض الصور وتكرارها يولّد «إرهاق الذاكرة»، أي التخمة البصريّة التي قد تؤدي إلى اضمحلال أثر الحدث وتراجع القدرة على تذكّره (تصوير: عبدالله العطار - غيتي).

نفس الحدث باعتباره «عملاً أمنيًا مشروعًا»، فإنها تمارس عملية إعادة ترميز تهدف إلى نزع المعنى الثقافي من الواقعة وتحويله إلى مشهد عسكري تقني، ما يعني ضرب الرابط بين الرمز والهوية الجماعية.

## الذاكرة الكونية

الذاكرة الكونية أو الكوزموبوليتانية (Cosmopolitan Memory) لم تُطرح فقط فكرةً فلسفية عامة، بل صيغت تاريخيًا لإضفاء بُعد معياري وأخلاقي جديد على مسألة الذاكرة، خاصة في سياق ذكرى الهولوكوست.(11)

**تعمل وسائل الإعلام الفلسطينية على ترسيخ ذاكرة جماعية للصمود عبر استدعاء صور الشهداء والدمار وربطها بالنكبة، بحيث تُبنى سردية الضحية–المقاوم في مواجهة الاحتلال. في المقابل، تسعى بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية والداعمة لها إلى تشويه هذه الذاكرة فبدلاً من الاعتراف بالضحايا، تُحمَّل غزة مسؤولية معاناتها، ويُقدَّم الفلسطينيون باعتبارهم سبب المأساة.**

الفكرة هي أنّ التضامن الدولي قد يظل محصورًا في بُعد سياسي أو إنساني عام، لكن الكوزموبوليتانية جاءت لتمنح هذه الذاكرة وزنًا أخلاقيًا كونيًا، أي استحضار ضحايا الهولوكوست لا يهوداً فقط، بل أعضاءً في الإنسانية جمعاء. ومن هنا تصبح الذاكرة التزامًا أخلاقيًا عبر الحدود، يفرض على الشعوب الأخرى واجب التذكر والتضامن مثل إنشاء النُصب التذكارية العالمية، أو إدراج ذكرى الإبادة في المناهج الدولية، أو حتى استدعائها مرجعاً أخلاقيا عند مواجهة أزمات معاصرة. بحيث تُقدَّم «درساً للإنسانية»

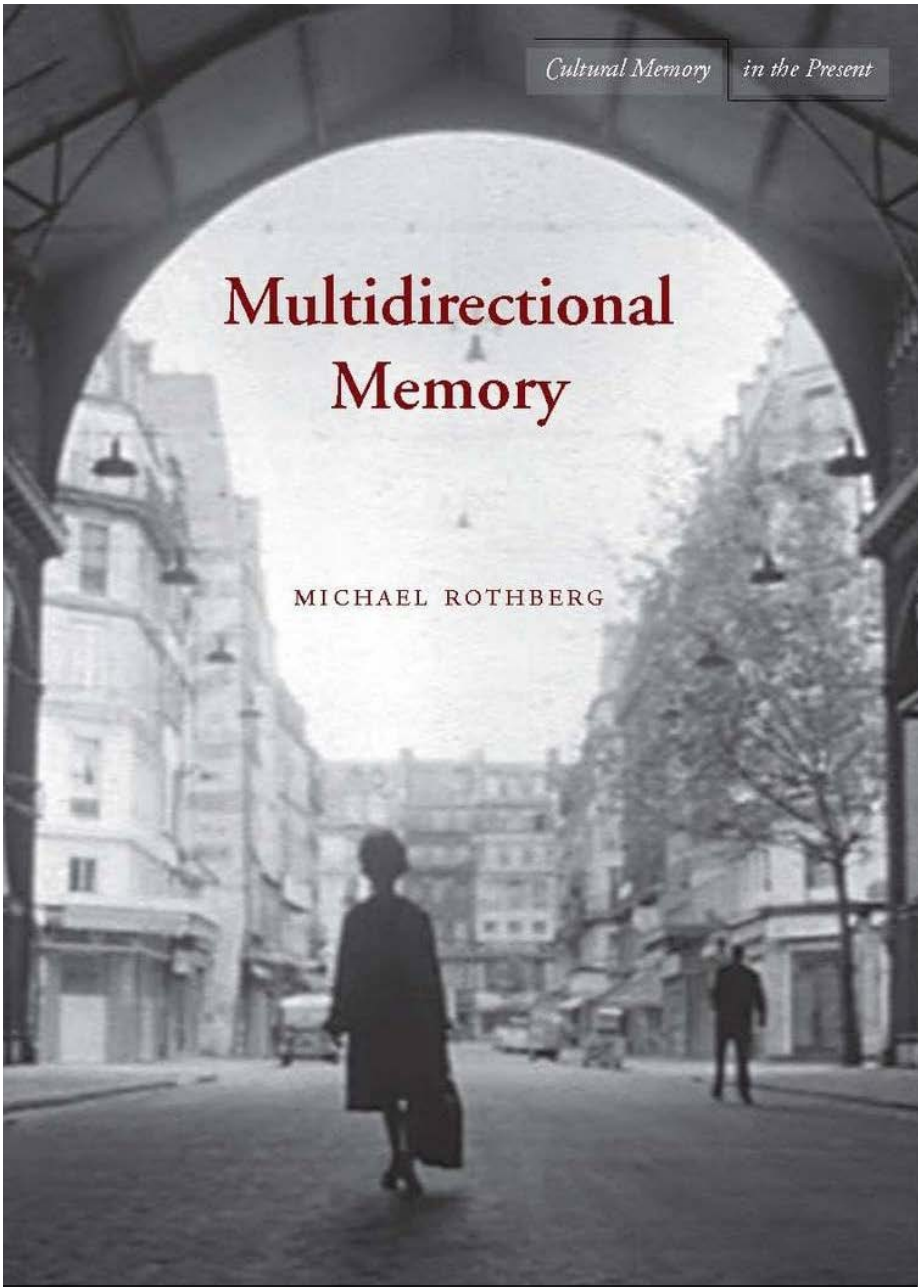


كتاب «الذاكرة متعددة الاتجاهات» لميخائيل روثبرغ يقدم المفهوم كإطار تحليلي لفهم كيفية مواجهة الذاكرة الخاصة لمجتمع عبر ذاكرة مجتمعات أخرى في المجال العام.

وخطاب لحقوق الإنسان، تبنّته منظمات دولية مثل اليونسكو.

لا يعني هذا أبدًا أنّه لم يعد يحق للشعوب التضامن مع ضحايا الهولوكوست أو استنكار فظاعتها؛ بالعكس، هذا التضامن واجب إنساني. لكن المشكلة تكمن في الاستخدام المزدوج لهذه الذاكرة، فمن جهة، تُستعمل كآلية وقائية وتربوية تحت شعار «ألا يتكرر»، عبر المناهج التعليمية والنصب التذكارية والقوانين الدولية. ومن جهة أخرى، تُستخدم معياراً مقارناً يوظَّف أحيانًا لتقويض معاناة شعوب أخرى أو لتهميش سرديتها، من خلال وضع الهولوكوست بوصفه «المقياس الأسمى» الذي تُقاس عليه باقي المآسي.

هذا الاستخدام المزدوج أثار جدلاً حتى بين مثقفين وكتّاب يهود أنفسهم. مثلاً، إيلي ويزل يشدد على فرادة الهولوكوست، معتبرًا أن مقارنته بمعاناة أخرى يُفقده معناه. (12) في المقابل، فإن أصواتا يهودية ناقدة مثل نورمان فنكلشتاين رأت أن «صناعة الهولوكوست» استُخدمت سياسيًا لإسكات النقد الموجّه لإسرائيل وللتغطية على معاناة الفلسطينيين. (13) وأن هذه السياسة تضر في إحياء ذاكرة ضحايا الهولوكوست أنفسهم.

في هذا السياق، يؤدي الإعلام دوراً مركزياً في توليد إطار أخلاقي بصري وأيقوني من خلال تصوير الضحايا، الأطفال، والمخيمات، يوسع الإعلام حدود الهوية الإنسانية، ويتيح للمشاهدين تصور أنفسهم أعضاءً في «إنسانية واحدة». هذه العملية تذكرنا بمفهوم بنديكت أندرسون عن «الجماعة المتخيلة»، إلا أنها هنا تتخذ بعداً عالمياً، حيث يُتصور الانتماء الإنساني عبر مشاهد الألم المتواصلة؛ مما يعزز شعوراً بالتضامن العابر للحدود.

> **الإعلام ليس مجرد ناقل للخبر، بل سلطة تحدد حدود التعاطف وتعيد تشكيل خرائط التضامن ومعايير المعنى. إن استعادة غزة كجزء من الذاكرة الإنسانية المشتركة تستلزم مساءلة نقدية عميقة لسياسات الإعلام في إنتاج التمثيل، وتأكيد أن الذاكرة هي ساحة مقاومة تُكسب الوجود معناه، وضمانة أخلاقية لعدم تكرار المأساة.**

مع ذلك، فإن قوة الإعلام ليست متسقة، فقد تُستخدم أحياناً لتعزيز التضامن الكوني، كما في تغطية أحداث غزة، رواندا، أو أوكرانيا، لتقديم هذه المآسي كقضايا إنسانية عالمية. حيث يوسّع الإعلام حدود الهوية الإنسانية، ويتيح للمشاهدين تصور أنفسهم كأعضاء في «إنسانية واحدة». وفي أحيان أخرى، تتحول هذه القوة إلى أداة تسييس، بحيث يُحتكر البعد العالمي لحدث محدد—مثل الهولوكوست—بينما تُعرض مآس أخرى على أنها أزمات «محلية» أو «إقليمية». في هذه الحالة، يعمل الإعلام على ترسيخ تراتبية المعاناة، ما يميز بين ما يُعد عالميًا وإنسانيًا وما يُعد ثانويًا أو محليًا.

لقد قدّمت لنا دير ياسين صورةً مكثّفة عن أركيولوجيا الذاكرة المنزوعة من الزمن؛ إذ لم يُتح للزمن أن يبني طبقاته بهدوء، كما يحدث في السياق الطبيعي حيث تتراكم الحكايات فوق الحكايات، ويمنح الماضيُ الحاضرَ فرصةً لإعادة قراءته. في دير ياسين، أُلغيت هذه المسافة الزمنية كليًّا، ودُفن «الزمن» مع الضحايا على يد الاحتلال. فاستلاب الزمن من الذاكرة يعني أن العلاقة الطبيعية بين الزمن والذاكرة قد قُطعت؛ فالذاكرة لم يعد مسموحًا لها أن تخزّن الأحداث ضمن مسار زمني متواصل.

أمّا في غزّة، فيتحوّل الزمن نفسه إلى ساحة جريمة، وانتقل الفعل من الاستلاب الى الإبادة، فالزمن يُباد مضافًا إلى المكان وسكّانه. تُبَثّ الإبادة لحظةً بلحظة، فيما يخطّط الاحتلالان لبناء مشاريعهما العقارية والاستيطانية عبر فعل الإبادة ذاته.

إن البحث في أنواع الذاكرة يكشف أن ما يتجسد كذاكرة إنسانية ليس معطى ثابتًا، بل هو نتاج سيرورات انتقاء وصياغة تتدخل فيها آليات الإعلام بقوة. وفي مأساة غزة، تظهر الإبادة بوصفها لحظة قصوى تحاول بعض الخطابات اختزالها في لغة «الصراع» أو «الأزمة»، لتُنتزع من موقعها في سجل الذاكرة الكونية. وهكذا يغدو الإعلام ليس مجرد ناقل للخبر، بل سلطة تحدد حدود التعاطف وتعيد تشكيل خرائط التضامن ومعايير المعنى. ومن هنا، فإن استعادة غزة كجزء من الذاكرة الإنسانية المشتركة تستلزم مساءلة نقدية عميقة لسياسات الإعلام في إنتاج التمثيل، وتأكيد أن الذاكرة ــ الفردية والجمعية ــ هي ساحة مقاومة تُكسب الوجود معناه، وضمانة أخلاقية لعدم تكرار المأساة.

عندما يُحتكر البعد العالمي لحدث محدد—مثل الهولوكوست—بينما تُعرض مآسي أخرى على أنها أزمات «محلية» أو «إقليمية»، يعمل الإعلام على ترسيخ تراتبية المعاناة، ما يميز بين ما يُعد عالميًا وإنسانيًا وما يُعد ثانويًا أو محليًا (تصوير: حسن الجدي - غيتي).

# المراجع


(1) Ricoeur, Paul. Memory, History, Forgetting. Translated by Kathleen Blamey and David Pellauer. Chicago: University of Chicago Press, 2004.

(2) Nora, Pierre, and Lawrence D. Kritzman, eds. Realms of Memory: The Construction of the French Past. Volume 1: Conflicts and Divisions. Translated by Arthur Goldhammer. New York: Columbia University Press, 1996.

(3) Ricoeur, Paul. Memory, History, Forgetting. Translated by Kathleen Blamey and David Pellauer. Chicago: University of Chicago Press, 2004.

(4) Koposov, Nikolay. Memory Laws, Memory Wars: The Politics of the Past in Europe and Russia. New York: Cambridge University Press, 2017.

(5) Said, Edward. «Permission to Narrate: Authority, Memory, and History.» Journal of Palestine Studies 13, no. 3 (Spring 1984): 27–48. https://www.jstor.org/stable/2536688.

(6) Huyssen, Andreas. Interview by Tânia Ganito and Daniela Agostinho. "On Memory and the Yet to Come." Diffractions: Graduate Journal for the Study of Culture, no. 1 (2013). https://doi.org/10,34632/diffractions.2013,942.

(7) Assmann, Aleida. Das neue Unbehagen an der Erinnerungskultur: Eine Intervention. München: Beck, 2013.

(8) Buchenhorst, Ralph. "Field, Forum, and Vilified Art: Recent Developments in the Representation of Mass Violence and Its Remembrance." In Memory and Genocide: On What Remains and the Possibility of Representation, edited by Fazil Moradi, Ralph Buchenhorst, and Maria Six-Hohenbalken, 151–164. London and New York: Routledge, 2017. https://doi.org/10,4324/9781315594897-11.

(9) Rothberg, Michael. Multidirectional Memory: Remembering the Holocaust in the Age of Decolonization. Stanford: Stanford University Press, 2009
.

(10) Halbwachs, Maurice. On Collective Memory. Edited, translated, and with an introduction by Lewis A. Coser. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

(11) Assmann, Jan. "Communicative and Cultural Memory." In Cultural Memory Studies: An International and Interdisciplinary Handbook, edited by Astrid Erll and Ansgar Nünning, 109–118. Berlin and New York: De Gruyter, 2008.

(12) Wiesel, Elie. Interview by Georg Klein. Nobel Prize. December 1986. https://www.nobelprize.org/prizes/peace/1986/wiesel/interview/.

(13) Finkelstein, Norman G. The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering. New York: Verso, 2000.

معهد الجزيـرة للإعلام
ALJAZEERA MEDIA INSTITUTE